

رواية الهلاك

# قبل آدم

جاك لندن

ترجمة: عبد المنعم صادق

# رواية الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دارالهلال

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا)  
٦٠ جنيتها مصريا داخل  
(ج.م.ع) ٥٠.٠٠٠  
مقدما نقداً أو بحوالة  
بريدية غير حكومية -  
البلاد العربية ٣٥  
دولارا - أمريكا وأوروبا  
وآسيا وأفريقيا ٥٠  
دولارا - باقي دول  
العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تندد مقدما  
بشيك مصرفي لأمير  
مؤسسة دارالهلال .  
بريد الاشتراكات

Email : subscription\_dept@yahoo.com

## الإدارة

القاهرة:  
١٦ شارع محمد  
عزالعرب بك (المبشديان  
سابقا) ت: ٢٣٦٢٥٥٠٠  
(٧ خطوط)  
المكائنات:  
ص.ب: ٦١ العتبة -  
القاهرة - الرقم البريدي  
١١٥١١ - تلفراغيا: المصور -  
القاهرة ج.م.ع .

تللكس:  
Telex 92703 hila l u n

فاكس:  
FAX: 23625469

رئيس مجلس الإدارة  
عبد القادر شهيد  
رئيس التحرير  
مجدى لداق

المستشار الفنى  
محمد أبوطالب

مدير التحرير  
محمد رضوان

الإصدار الأول - يناير ١٩٤٩

العدد ٧٠٥ - سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٧م - رمضان ١٤٢٨ هـ - نوت ١٧٢٤ ق

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت  
١٠٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالاً - البحرين ١٠٢ دينار - قطر ١٢ ريالاً -  
الإمارات ١٢ درهماً - سلطنة عمان ١٠٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠  
درهماً - فلسطين ٣٠٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣٠٥ جنيه -  
لندن ٢ جك.

ثمن  
النسخة

البريد الإلكتروني:

darhilal @ idsc. gov. eg

# قبل آدم

تأليف: جاك لندن

ترجمة: عبد الرحمن صادق

دارالهلال

## الفصل الأول

صور! صور! صور!

وغالياً ما كنت أتساءل قبل أن أقف على الحقيقة من أين تأتي هذه الصور العديدة التي تزخر بها أحلامي، إذ كانت صوراً لم أر مثيلاً لها قط في حياة اليقظة نهاراً. وقد عذبت هذه الصور طفولتي، وجعلت من أحلامي مركباً متلاحقاً من الكوابيس حتى اقتنعت بأنى اختلف عن بقية البشر وأنى مخلوق غير طبيعي وملعون.

وما كنت أحقق أى قدر من السعادة إلا نهاراً أما في الليل فقد كان الخوف مهيمناً وباله من خوف. واستطيع أن أقول أنه لم يعان أى واحد من البشر يمشون معي على البسيطة خوفاً يشبه ذلك الخوف الذي كنت أعانيه، من حيث النوع أو الدرجة لأنه خوف من ذلك النوع الذي كان سائداً في العصور الخالية، النوع الذي كان سارياً في العالم البدائي وقت نشأته ثم وقت شبابه في ذلك الوقت من التاريخ، الذي يعرف باسم العصر الجليدي الأخير، الذي نشأ فيه الإنسان الأول منذ مليون ونصف مليون سنة.

ماذا أعنى؟ أرى لزاماً على أن أقدم بعض التفسير قبل أن أحكى لك مضمون أحلامي، وإلا لما عرفت إلا القليل من معنى الأشياء التي أجيد الإنلام بها. وإذ أكتب هذا تتوأكب أمام ناظري كل كائنات وأحداث العالم القديم، وكأننا أراها من خلال الفانوس السحري وإذا أنا عرضتها عليك على النحو الذي تبدو عليه لي، لبدت لك غير معقولة ولا أصل لها.

والأفأى معنى تراه في هذه التعبيرات؟ صداقة مسترخي الأذان أو إغراء



الخطوط للفنان :

محمد العيسوي

متابعة :

ياسر شعبان

السريعة أو نشوة وارتداد العين الحمراء؟ لن تجد فى ذلك أى معنى، بل ستجد فيه تنافراً صارخاً تماماً كالذى تجده فى تعبيرات أعمال أهل النار وأهل الشجر ومجالس القبائل التى تسودها الهمهمة ، وذلك لأنك لاتعرف سلام الكهوف الرطبة فى الجرف، أو الازدحام عند موارد الماء فى آخر النهار. ولم تحس أبداً لفحة ريع الصباح فى قمم الجبال، ولم تتنوق حلوة ماء الشجر النضر بقمك.

وأرى أنه من الأفضل لك أن تعالج الأمر كما عالجتُه أنا أثناء طفولتى، وأنا فى طفولتى أشبه الأطفال الآخرين كثيراً جداً، فى ساعات يقظتى نهاراً ولا أختلف عنه إلا أثناء النوم، ونومى منذ بواكير متاعيه ذاكرتى فترة رعب بما يتضمنه من أحلام ، ومن التادر أن تصطبغ هذه الأحلام بصيغة سعادة إذ هى بصفة عامة مليئة بالخوف . وهو خوف يشبه الخوف الذى يسيطر على فى نومى. كان هذا الخوف فى صفته ونوعه يتجاوز كل خبرتى وتجارىسى.

فنا مثلاً غلام من أهل المدينة الذين يعتبرون الريف دنيا أخرى مجهولة ، ومع ذلك فلم تظهر المدن أبداً فى أحلامى، ولم يظهر أى بيت فى أحلامى، بل أنه لم ينغذ أى كائن بشرى من سور نومى .. ولقد كنت أطوف فى نومى بغياب لانهاية لها وأنا الذى لم أر الأشجار إلا فى الحدائق العامة وفى الكتب المصورة، وفضلاً عن ذلك لم تكن أشجار أحلامى مجرد بقع مبهمة بل كانت محددة واضحة . ولقد ألقت أعصانها ورأيت وعرفت كل ورقة من أوراقها وميزت كل ورقة عن بقية الأوراق.

وأنكر جيداً أول مرة رأيت فيها شجرة البلوط فى حياة يقظتى، وإن أنا أنظر إلى الأوراق والفروع والعقد تذكرت بجلاء يدعو إلى الحزن، أنى رأيت نفس هذا النوع من الشجر مرات لا حصر لها أثناء نومى ، وبعد ذلك لم يثر دهشتى أن عرفت على الفور أشجاراً مثل شجر التنوب القضى أو شجر السدر الجبلى أو شجر البتولا أو شجر الغار، حالما وقعت عيني عليه فقد سبق لى أن رأيتها كلها من قبل أثناء نومى.

ولعلك أدركت أدركت مدى مخالفة هذا لأول قانون من قوانين الأحلام وهو الذى يقول : « ان المرء لا يرى فى أحلامه ما يراه فى حياة يقظته أو أخلطاً من

أشياء رآها فى تلك الحياة». ولكن أحلامى خالفت هذا القانون، إذ لم أر فى أحلامى شيئاً قط عرفته فى حياة يقظتى. كانت حياة أحلامى وحياة يقظتى متباعدتين كتاهما عن الأخرى ولا تشتركان فى شىء سوى.. كنت أنا حلقة الاتصال التى تحيا الحياتين كليتهما على نحو ما.

ولقد علمت فى طفولتى أن البندق يأتى من الببدال، وأن التوت يأتى من الفاكهاتى، ولكن قبل علمى هذا قطعت فى أحلامى البندق من شجرة أو جمعت المساقط منه تحتها وأكلته، وعلى نفس النحو أكلت التوت من شجرة، أو مساقطاً تحتها. ولم تكن لى خبرة بذلك فى الحياة.

ولن أنسى أول مرة رأيت فيها التوت الأزرق يقدم على المائدة، إذ لم أكن قد رأيت من قبل توتاً أزرق، ومع ذلك فحالما رأيتُه ففزت إلى نهنى تكريات أحلام طفلى أثناءها بأرض موحلة وأكلت من ذلك التوت ملء بطنى. ولما وضعت أمدى أمامى صحناً مليئاً بالتوت، وملأت ملعقتى به، لم أكد أرفع المعلقة إلى فمى حتى كنت على علم بمذاقه، ولم أشعر بخيبة أمل إذا كان له نفس المذاق الذى تنوقته آلاف المرات أثناء نومى.

الثعابين؟ قبل أن أسمع بوجود الثعابين بزمّن طويل، كانت تعذبنى فى نومى وتتربص بى فى ممرات الغابة، وتقفز هاجمة على قدمى وتكوى ماضية عنى خلال الأعشاب الجافة، أو فوق رقعة من الصخور العارية، أو تطاربنى حتى أعالى الشجر، وتحيط جنوع الأشجار بأجسامها اللامعة الضخمة وهى تدفعنى إلى أعلى فأعلى، أو أبعد فأبعد فوق فروع الأشجار المهترزة المتكسرة حتى أبلغ ارتفاعاً عن الأرض يسبب لى الدوار. الثعابين بالسننثا المتشعبة وأعينها اللامعة وقشورها البراقة وفحيحها - ألم أكن أعرفها جيداً يوم زرت السيرك لأول مرة ورأيت الحواى وهو يجعلها ترفع رؤوسها عالية؟ لقد كانت صديقاتى القديمات بل عدواتى التى ملأت ليالى بالخوف.

أه تلك الغابات التى لانهاية لها ولكآبتها المفزعة الآن. ياطول ماجبيتها خانقا مطراداً ، أفزع لأدنى صوت أخاف من مجرد ظلى، وأنا متوتر الأعصاب دائم الانتباه واليقظة مستعد للانديفاع للتوقى، هرب جنونى، لأنجو بحياتى، ذلك لانى

كنت فريسة كل أنواع الحياة المتوحشة التي تسكن الغابة. وكنت من فرط الخوف أجرى هرباً من الوحوش التي تطاردني.

ولما بلغت الخامسة من عمري ذهبت إلى السيرك لأول مرة، وعدت منه سقيماً ولم يكن مصدر السقم الفول السوداني أو الليمونادة الوردية اللون، ولكن حدث أننا عندما دخلنا خيمة الحيوانات مزق الهواء زئير أجش فجذبت يدي من يد أبي وعدت أدرأجي مسرعاً، وخرجت من الباب واصطدمت بالناس وسقطت على الأرض وأنا أصبح طوال الوقت في فزع وأمسكني أبي وهدأني. وأشار إلى جموع الناس إذ لم يعيوا بالزئير وطيب نفسي بتأكيد السلامة.

وبالرغم من ذلك كله فإني ظلت خائفاً أرتعد وأنا أقترب من قفص الأسد بتشجيع كبير من أبي . أه لقد عرفته على الفور . عرفت الوحش الرهيب! وانعكست في رؤياي الباطنية ذكريات أحلامى - شمس الظهيرة مشرقة على الأعشاب الطويلة، وثور برى يرعى الكلا فى هدوء، ثم انفراج الأعشاب فجأة يعقبه انفراج ذلك الأسمر النحاسى اللون السريع وقفزته على ظهر الثور ثم الكسر فالخوار ثم القرقرشة قرقرشة العظم - أو هدوء رطب عند نبع ماء وجواد برى راعع على قائمته الأماميتين يشرب فى رقة ، وعندئذ الوحش الأسمر النحاسى اللون - دائماً الأسمر النحاسى اللون والقفزة وصهيل الجواد وانبطاحه على الأرض والقرقرشة، قرقرشة العظم، ومع ذلك مرة أخرى عسق معتم وصمت حزين فى آخر النهار، ثم الزئير القوى الممتلىء ينبعث فجأة وكأنه نفخ الصور فى يوم الدين، ويعقب ذلك على الفور ذلك الصياح المجنون واصطكاك الأسنان بين الأشجار. وأنا أرتعد خوفاً وأنا واحد من أولئك الصائحين العديدين الذين تصطك أسنانهم بين الشجر . ولما رأيته بلا حول أو قوة بين قضبان قفصه غضبت وكشرت له عن أنيابي، وضغطت أسناني وركضت قافراً وأنا أصبح صيحات ساخرة غير مفهومة، وأشكل ملامح وجهي أشكالاً مضحكة، فاستجاب لى واندفع إلى الأمام ولكنه كان بين القضبان، فزأر مضمناً زئيره غضبه العاجز .. أه لقد عرفنى هو الآخر وكانت الأصوات الصادرة منى هى الأصوات القديمة التى يفهمها .

وخاف أبواى وقالت أُمى «الولد مريض» وقال أبى «لقد أصيب بهستيرياً» ولم

أقل لهما شيئاً ولم يعرفا شيئاً قط. والتزمت الصمت بشأن ازواج شخصيتى وما يشبه الانفصام فيها لما أرى أنى على حق فى هذا الوصف.

ورأيت حاوى الثعابين وبعده لم أر شيئاً آخر فى تلك الليلة فى السيرك، بل أخذنى أبواى إلى البيت وأنا فى حالة عصبية منكم القوى سقيما بسبب غزو حياتى الأخرى وهى حياة أحلامى لحياتى الحقيقية.

ولقد ذكرت التزامى الصمت .. مرة واحدة فقط أفضيت بغرابة الأمر لشخص آخر هو غلام كان صاحباً لى وكنا فى الثامنة من عمرنا. ورسمت له من أحلامى صور ذلك العالم المنقرض الذى أعتقد انى عشت فيه يوماً ما، وأنبأته بأحوال ذلك الزمن الخالى ، زمن مسترخى الأذان ولهونا معاً ومجالس القبائل التى تسودها المهمة وأهل النار والأماكن التى كانوا يجلسون فيها القرفصاء وحكى له المزيد وزاد ضحكه . وأقسمت له جادا أن الأمور كانت هكذا . وبدأ ينظر لى نظرة ارتياب ويعطى لرفاقنا فى اللعب صوراً مزيفة عجيبه لقصصى حتى أخذ الجميع ينظرون لى فى ارتياب.

وكانت تجربة مريرة ولكنى تلتقت منها درساً وهو أنى مختلف عن بقية البشر وأنى شخص شاذ بى شىء لم يستطيعوا فهمه، وأن التحدث عنه لا يسفر إلا عن سوء فهم. وكنت استمع فى هدوء لما يحكى من قصص الأشباح والعمالقة وأبتسم لنفسى عابساً وأفكر فى ليالى الخوف التى عشتها وأنا أعرف أن الأشياء التى أراها حقيقية .. حقيقية مثلى وليست أبخرة مخففة وظلالاً متوهجة.

ولم تكن فكرة الغيلان والعمالقة تخيفنى، أما الربع الجسم فهو السقوط خلال الاغصان المورقة والارتفاعات المثيرة للدوار، والثعابين التى تهاجمنى وأنا أروغ منها وأقفز بعيداً هرباً منها، وأسنانى تصطك والكلاب المتوحشة التى تطاردنى عبر الأرض الفضاء المكشوفة نحو الغابة. لأنها كانت أحداثاً واقعية ولم تكن تخيلاً . كانت أشياء اللحم الحى والعرق والدم .. أما الغيلان والعمالقة وأنا فقد كنا رفاق فراش إذ هى قورنت بهذه الأحوال التى شاركتنى فراشى طول طفولتى ولا تزال تشاركنى الفراش الآن وأنا أكتب هذا وقد قطعت من عمري أعواماً عديدة.

## الفصل الثاني

قلت من قبل اني لم أر في أحلامي كائناً بشرياً قط. وقد أدركت هذه الحقيقة مبكراً جداً وأحسست نقص النوع الذي انتمى إليه إحساساً مؤلماً. وكنت أحس وأنا طفل صغير أنني لو استطعت أن أجد رجلاً واحداً فحسب أو إنساناً واحداً فحسب لأنقذني ذلك من أحلامي فلا تعد . وظلت فكرة تمنى وجود ذلك الإنسان الواحد مسيطرة على كل ليلة من ليالي حياتي مدة سنوات.

ويجب أن أكرر أن هذه الفكرة كانت تراودني أثناء أحلامي فأعتبرها برهاناً على اندماج شخصيتي، وبرهان وجود نقطة اتصال بين الجزئين المنفصلين اللذين تتكون منهما شخصيتي، شخصية الأحلام التي عاشت في الماضي السحيق قبل وجود الإنسان بصورته المعروفة لنا، وشخصيتي الأخرى وهي شخصية اليقظة النهارية التي كانت تفرض نفسها إلى مدى معرفة وجود الإنسان في مادة أحلامي.

وربما وجد علماء النفس عيباً في طريقة استخدامي تعبير «تفكك الشخصية» وأنا أعرف الاصطلاح الذي استخدمته ومع ذلك فأنا مضطر إلى استخدامه على طريقتي بسبب قصوري عن إيجاد تعبير أفضل. والآن سأمضي إلى تفسير استخدامي هذا التعبير أو سوء استخدامي له.

وإلى أن أصبحت شاباً طالباً في الكلية لم أجد أي دليل إلى مغزى أحلامي وسببها، وظلت حتى ذلك التاريخ بلا معنى وبلا علة ظاهرة، ولكنني اكتشفت في الكلية التطور وعلم النفس وتعلمت تفسير الحالات والتجارب العقلية الغريبة العديدة، فمثلاً كان هناك حلم السقوط في الفضاء وهو أعم تجارب الأحلام التي يعرفها جميع الناس بالتجربة.

وقال أستاذنا لى ان هذه ذكرى عنصرية ترجع إلى أسلافنا الأوائل الذين عاشوا على الشجرة. ولما كانوا من سكان الشجر فان احتمال سقوطهم كان خطراً قائماً دائماً، وقد فقد الكثيرون منهم حياتهم على هكذا النحو. وحدث لهم جميعاً أن سقطوا سقطات رهيبية وكانوا يتقنون أنفسهم بأمسك فروع الشجر وهم يهزون إلى الأرض.

وتسفر السقطة الرهيبية عن صدمة تسفر بدورها عن تغييرات جزئية فى الخلايا المخية الذرية وبهذا أصبحت باختصار ذكريات عنصرية. وهكذا عندما ننام أنا وأنت أو نغفو حتى يخيم علينا النعاس فاننا نسقط فى الفضاء ونستيقظ على الاحساس بالانقباض ونحن على وشك الاصطدام. عندما يحدث هذا لنا فلسنا نتذكر الا ما كان يحدث لأسلافنا أهل الشجر، وقد دمغته التغييرات المخية وتوارثها الجنس.

وليس فى هذا شئ غريب أكثر مما فى الغريزة من غرابية، والغريزة مجرد عادة أدمجت فى كياننا الوراثى. ويلاحظ بهذه المناسبة أننا فى حلم السقوط المألوف جداً لك ولى ولنا جميعاً لا نصل إلى الاصطدام بالأرض، لأن هذا الاصطدام يحطم ، وأولئك الذين اصطدموا بالأرض من أسلافنا أهل الشجر ماتوا على الفور. صحيح أن الصدمة التى تجمت عن سقوطهم وصلت إلى الخلايا المخية، ولكنهم ماتوا فوراً قبل أن ينجبوا ذرية. وأنت وأنا من سلالة أولئك الذين لم يصطدموا بالأرض وهذا هو السبب فى أننا لا نصطدم بالأرض أبداً فى أحلامنا.

ونأتى الآن إلى تفكك الشخصية. اننا لانحس أبداً إحساس السقوط ، حين نكون مستيقظين تماماً ، ولا خبرة لشخصيتنا فى اليقظة النهارية بالسقوط. ولا جدال ان فى الحجة التى تقول ان شخصية أخرى متميزة تلك التى تسقط أثناء نومنا، وهى التى لها خبرة بمثل هذا السقوط وهى باختصار التى تذكر تجارب النوع فى الماضى تماماً كما تذكر شخصيتنا الأخرى تجاربنا فى حياة اليقظة النهارية.

وفى هذه المرحلة من تفكيرى بدأت أرى ضوء الحقيقة وت فجر الضوء بسرعة

ياخذ بريقه بالأبصار، وهو يضىء ويفسر كل ماكان غريباً ووراء الطبيعة، ومستحيلاً فى تجاربى فى الأحلام وفى نومى لم تكن شخصية يقظتى هى التى تسيطر على بل كانت المسيطرة على شخصية أخرى متميزة ذات رصيد جديد مختلف تماماً من التجارب ولها ذكريات تلك التجارب المختلفة .

ما هى هذه الشخصية؟ ومتى عاشت هى نفسها حياة اليقظة فى هذا الكوكب حتى جمعت هذا الرصيد من التجارب الغريبة؟

كانت هذه أسئلة أجابت عليها أحلامي نفسها. عاش الشخص الآخر فى الزمان الخالى عندما كان العالم فتياً فى تلك الفترة التى نسميها منتصف العصر الجليدى الأخير. وسقط من فوق الشجر ولكنه لم يصطدم بالأرض. وكان يتمم خوفاً عند سماعه زئير الأسد وكانت الوحوش الكاسرة تطارده والتعابين الفتاكة تهاجمه وكان يثرثر مع أفراد نوعه فى المجلس وناله أذى أهل النار يوم أن هرب منهم.

ولكنى أسمعك تعترض .. لماذا لم تكن هذه الذكريات المتعلقة بالنوع لنا أيضاً بالمثل ونحن الذين لنا تلك الشخصية الأخرى الغامضة التى تسقط فى الفضاء ونحن نيام؟

وأستطيع أن أجيب بسؤال آخر .. لماذا يوجد عجل له رأسان؟ وجوابى على هذا السؤال هو أن ذلك فلتة من فلتات الطبيعة وهذا هو نفس جوابى على سؤالك. إن لى هذه الشخصية الأخرى ولى تلك الذكريات الكاملة المتعلقة بالنوع لائى فلتة من فلتات الطبيعة.

ولكن لأن أكثر وضوحاً فأكثر ذكرياتى المتعلقة بالنوع شيوياً هى حلم السقوط فى الفضاء. وهذه الشخصية الأخرى غامضة جداً، فكل ما فيها من ذكرى هو ذكرى السقوط ولكن للكثيرين منا شخصيات أخرى أكثر وضوحاً وتميزاً فالكثيرون منا يلحون بالطيران وبمطاردة - الغول وبالألوان وبالاختناق وبالزواحف والهوام. وباختصار بينما توجد هذه الشخصية الأخرى أثراً فيها جميعاً، فانها تكاد تنمى تماماً فى بعضنا، وهى أكثر بروزاً فى بعضنا الآخر ولبعضنا ذكريات تتعلق بالنوع أقوى وأكمل مما عند البعض الآخر.

والمسألة كلها مسألة اختلاف درجة سيطرة الشخصية الأخرى، ودرجة سيطرة الشخصية الأخرى على هائلة. وتكاد شخصيتي الأخرى تساوى شخصيتي الأولى فى القوة. وأنا فى هذا الأمر كما قلت فلتة من فلتات الطبيعة وفتلة فى الوراثة.

وأعتقد فعلاً أن سيطرة هذه الشخصية الأخرى - ولكنها ليست فى قوة شخصيتي - هى التى أوجدت عند القلة من الآخرين الاعتقاد بتجربة البعث وهى نظرية مقبولة جداً ومقنعة أشد الاقناع عند هؤلاء الناس بالذات . وعندما يرون رؤى لمناظر لم يروها بأنفسهم من قبل قط كذكرى أعمال وأحداث يرجع تاريخها إلى الماضى فإن أبسط تفسير لذلك هو أنهم سبق لهم أن عاشوا من قبل.

ولكنهم أخطأوا إذا تجاهلوا ازواج شخصيتهم وهم لا يعرفون شخصيتهم الأخرى ويظنونها شخصيتهم نفسها وان لهم شخصية واحدة فحسب ومن مثل هذا الفرض لا يستطيعون ان يستنتجوا غير شىء واحد هو أنهم عاشوا حياة سابقة .

وهم مخطئون فليس الأمر بعثاً وأنا أرى نفسى أجوب الغابات التى كانت موجودة والعالم فى شبابه، ومع ذلك فليس الذى أراه هو أنا بل لايزيد عن أن يكون جزءاً منى، ولكنهما أقل بعداً. ونفسى الأخرى هى سلفى. سلف أسلافى فى الخط الأول من نوعى وهو نفسه سليل خيط ظهرت عليه من قبل عصره زمن طويل أصابع فى اليدين والقدمين وتسلق الشجر.

ويجب أن أذكر مرة أخرى - وأنا أخاطر بإثارة الملل أنى فى هذا الشئ - أعتبر فلتة لا لأن لى ذكرى متعلقة بالنوع إلى مدى هائل ولكن لأن لى ذكريات سلف معين قديم جداً ، ومع ذلك فانه بينما يكون هذا أمراً عادياً فانه ليس فيه ما يثير العجب.

تتبعنى فى منطقتى .. الغريزة ذكرى تتعلق بالنوع . هذا حسن جداً وأذن فانت وأنا وجميعنا نتلقى هذه الذكريات من أبائنا وأمهاتنا كما تلقوها بپورهم من آبائهم وأمهاتهم، وأذن فلا بد من أن هناك وسيطاً تنتقل به هذه الذكريات من جيل إلى جيل، هذا الوسيط هو ما وصفه وايزمان بأنه «البلازما الجرثومية» وهى تحمل ذكريات كل تطور الجنس . وهذه الذكريات معتمه ومضطربة وأكثرها ضائع ولكن

بعض سلالات البلازما الجرثومية تحمل شحنة كبيرة من الذكريات، ولكى يكون تعبيرنا علمياً نقول ان هذا البعض أكثر ارتداداً إلى الأصل من السلالات الأخرى وسلالاتى من هذا النوع. وأنا فلتة من فلتات الطبيعة فى الوراثة أو كابوس مرتد للأصل . سمنى ما شئت من أسماء ولكنى هاتذا حقيقى وحى. أكل ثلاث وجبات طعام طيبة يوماً فماذا أنت صانع إزاء ذلك؟

\*\*\*

والآن قبل أن أبدأ قصتى أريد أن اتوقع المتشككين من أمثال توماس من علماء النفس والذين يميلون إلى السخرية والقول بأن ملازمة أخلامى ترجع إلى الإمعان فى الدراسة والاسقاط الباطنى لمعرفتى للتطور فى أخلامى. وفى المكان الأول لم أكن أبداً طالباً متحمساً. فكان ترتيبي عند التخرج الأخير فى فصلى المدرسى، وكانت عنايتى بالألعاب الرياضية تفوق عنايتى بالدراسة - وليس هناك سبب يدعونى لنلا اعترف بهذا وكان البلياردو أهم ما أعنى به فى الألعاب الرياضية .

وفضلاً عن ذلك فلم تكن لى أية معرفة بالتطور حتى التحقت بالكلية بينما كنت فى طفولتى وشبابى أعيش فعلاً فى أخلامى بكل تفاصيل تلك الحياة الأخرى حياة العصور الأولى . ومع ذلك فسأقول ان هذه التفاصيل كانت مختلفة ومتنافرة حتى عرفت علم التطور. فكان التطور هو مفتاح السر وأعطانى التفسير وأعاد إلى عقلى المرتد إلى الأصل صحته . عقلى الحديث الطبيعى الذى يرجع إلى ماضٍ سحيق حتى يكون معاصراً للبداية الخام للبشرية.

لأنه فى هذا الماضى الذى أعرفه لم يكن للإنسان كما نعرفه الآن وجود وولابد أن أكون قد عشت وكان وجودى فى الفترة التى كان الإنسان فيها فى طريقه إلى الوجود.



## الفصل الثالث

وأكثر الأحلام شيوعاً في طفولتي شيء كهذا . كنت أبو صغيراً جداً منكورا ، وأنا راقد داخل مايشبه أن يكون عشا مكوناً من الأغصان وفروع الشجر . وأحياناً أبو راقداً على ظهري ، وأقضى هكذا عدة ساعات ، أرقب أشعة الشمس ، وهي تنعكس على أوراق الشجر فوقى ، والرياح تحرك هذه الأوراق ، وغالباً ما يتحرك العش نفسه ، عندما تكون الريح قوية .

ولكني كنت دائماً ، وأنا راقد هكذا في العش ، يسيطر على شعور بفضاء هائل تهمني لم أراه قط ، ذلك لأنني لم أتطلع فوق حافة العش فأراه ، ولكني كنت أعرف وأخشى ذلك الفضاء تحتي تماماً يتهددني دائماً ، وكأنه جوف حيوان مفترس هائل .

وكثيراً ما رأيت في بواكر طفولتي حلماً أنى هامد . ثم يحدث فجأة أن تندفع إلى داخل هذا الحلم أشكال غريبة وأحداث وحشية ورعد وقصف عاصفة أو مناظر طبيعية غير مألوفة لا عهد لي بمثلها في حياة اليقظة ، فيكون اضطراب وكابوس ولا أستطيع فهم شيء من ذلك إذ ليس هناك أى تسلسل منطقي لكل ذلك . وإنك لترى أن أحلامي خالية من التسلسل فأننا في لحظة ما طفل صغير جداً من أطفال العالم القديم ، راقد في عش شجرة . وفي اللحظة التالية أراني رجلاً كامل الرجولة مشتبكاً في معركة مع العين الحمراء وفي اللحظة التي تلي تلك أراني أزحف بحذر نحو نبع الماء ، والنهار حار شديد الحرارة ، وبينما الأحداث في العالم القديم تفصل بينها سنوات كاملة إذا بها تحدث لي في الحلم ولا يفصل بينها غير دقائق أو ثوان .

وبدا لى أن صمى وجمود حركتى هو كل ما ينتظر حدوثه منى وأنه لم يكن واجبا على أن أصرخ فى وجه الخوف . كان ذلك هو إملاء الغريزة وهكذا جلست وانتظرت نون أن أعرف ما هذا الذى أنتظره . ورفع الخنزير البرى السرخس جانبا وخرج إلى العراء وقد ذهب الفضول من ناظره ولعت عيناه ببريق القسوة ورفع رأسه نحوى مهيدا وتقدم خطوة وفعل نفس الأمر مرة أخرى ثم مرة ثالثة .

وعندئذ صحت ، أو صرخت صرخة لا أستطيع وصفها ، ولكنها كانت صرخة حادة وريهية ويبدو أن ذلك فى هذه المرحلة من سير الأحداث هو ما كان ينتظر منى أن أفعله . فمن مكان غير بعيد جاءت صيحة الاستجابة ، ويبدو أن الصوت الذى صدر عنى سبب للخنزير ارتباكاً مؤقتاً إذ توقف ونقل ثقله فى تردد وفى تلك اللحظة أندفع شبح نوحنا .

كانت أمى تشبه ، أن تكون قدرة ضخمة من نوع الأورانج - أوتان أو الشيمبانزى - ومع ذلك فقد كانت مختلفة عن هاتين المخلوقتين على نحو واضح محدد . كانت أثقل بناءً منهما وأقل شعرا . ولم تكن ذراعاهما فى طول أنزعهما أما ساقاهما فأغظ من سيقانها وكانت عارية من الثياب لا يغطيها سوى شعرها الطبيعى الطويل . وعندما ثارت كانت صورة كاملة للغضب .

واندفعت غاضبة إلى مكان الحدث وهى تضغط أسنانها فيكون لذلك صرير وتقطب جبينها على نحو مخيف وتكشر عن أسنانها وتصدر صيحات حادة مستمرة وكأنها تريد لمقطعين «خا - أه ١» و «خا - أه ١» وجاء ظهورها مفاجئا ومخيفا إلى حد أن الخنزير كور نفسه قهرا متحذا وضعا دفاعيا ونفث شعره وهى تميل نحوه . وقد أفرغته حتى بهرت أنفاسه .

وعرغت أنا ماذا يجب على أن أفعل فى اللحظة التى انتصرت أمى فيها ففقرت نوحها وأحطت وسطها وتعلقت به بيدي وقدمى . نعم بقدمى إذ كان فى استطاعتى استخدامها كاستخدامى ليدى .. وأحسست تحت قبضتى المتوترة انتفاش شعرها بينما كان جلدها وعضلاتها تتحرك تحته مع الجهود التى تبذلها .

وعلى أثر فقرتى نحو أمى وإحاطتى وسطها بيدي وقدمى فقرت هى فى الهواء وأمسكت فرع شجرة كان متدلليا فوقنا . وفى اللحظة التالية مر الخنزير تحتنا سندفعا ولانياه صليل إذ كان قد أفاق من دهشته إلى الأمام وهو يصرخ وكان

فالأمر كله مضطرب أشد الاضطراب ولكنى لن أنقل هذا الاضطراب اليك . لقد ظلت على هذا النحو حتى الشباب وحلمت عدة آلاف المرات حتى إذا بلغت طوق الشباب استقامت الأمور ووضحت . إذ وقفت على سر الزمن ، وأصبحت قادراً على تجميع الأحداث ، والأعمال ، وفقا لنظامها الصحيح ، فاستطعت أن أعيد تكوين صورة العالم كما كان وقت نشأته وهو الوقت الذى كنت أعيش فيه - أو الوقت الذى كانت ذاتى الأخرى تعيش فيه .. وإلا أهمية للتمييز بين الشيتين لانى كرجل حديث عدت إلى الوراء وعشت الحياة الأولى ضحية ذاتى الأخرى .

\*\*\*

ولكى يكون الأمر ملائماً لك سائظم الأحداث المختلفة جميعها فى قصة شاملة لأن هذا الكتاب ليس بحثاً مطولاً فى علم الاجتماع بل هناك خيط معين من الاستمرار والحدوث يسلك كل الأحلام . وهناك مثلاً صداقتى لمسترخى الأذن وعداوة صاحب العين الحمراء .

وأنا واثق من أنك توافق على جمع كل هذا فى قصة مترابطة ومسلية . ونكرياتى عن أمس قليلة وربما أقدم ذكرى لها وأكثرها وضوحاً هى أنى كنت راقداً على الأرض ، وقد أصبحت أكبر سنا منى أيام أن كنت فى العش ، ولكنى لم أزل عاجزا وأخذت أتدحرج هنا وهناك فى الأوراق الجافة ألعب وأدندن بصوت كصوت أحتكاك الخشب وأشعة الشمس دافئة . وأنكر أنى كنت سعيداً شاعرا بالراحة وأنا فى مكانى الصغير المكتشف وقد أحاطت بى من كل ناحية شجيرات ونباتات تشبه السرخس وفوق وفى كل مكان جنوع وفروع أشجار الغابة .

وعلى حين فجأة سمعت صوتاً فاعتدلت فى جلستى ولم أتحرك وتوقفت الضوضاء الصغيرة فى حلقى وجلست وكانما قد تحولت إلى صخر واقترب الصوت وكان كقبح الخنزير . وعندئذ سمعت الأصوات الصادرة عن تحرك جسم فى الغابة . ورأيت بعد ذلك نباتات السرخس وقد حركها مرور الجسم وانشقت نباتات السرخس عن عيني برقتين وخرطوم طويل وأنياب بيضاء .

كان خنزيرا برياً . ونظرا لى فى فضول وقبع مرة أو مرتين ثم نقل ثقله من إحدى قائمتيه الأماميتين إلى الأخرى وهو يحرك رأسه فى نفس الوقت من جانب إلى آخر ، ويهز نباتات السرخس وظللت جالسا فى مكانى ساكنا كشخص متحير بينما ظلت عيناه لا تطرفان وأنا أهدق النظر فيه والخوف ينهش قلبى .

صراخه كخف البوق . وعلى أية حال كان ذلك نداء أعقبه اندفاع أجسام بين نباتات السرخس وغبار يثور من كل ناحية.

ومن كل جانب اندفعت الخنازير البرية إلى الأرض العراء . وكانت عشرة خنازير ولكن أمى تحركت وانتقلت إلى غصن شجرة سميك على ارتفاع عشرة أقدام من الأرض . وظللت متعلقا بها . وجلسنا القرفصاء أمنين ولكنها ظلت في حالة انفعال شديد وثرثرة وهي تصيح وتعنف تلك المجموعة من الخنازير البرية التي تجمعت تحتنا وهي نافشة شعرها مكشرة عن أنيابها . ونظرت بدورى وأنا أرتعد إلى الوحوش الغاضبة . وبدلت قصارى جهدى فى تقليد صيحات أمى .

ومن بعيد جاءت صيحات مماثلة إلا أنها أشد عمقا حتى لتصل فى قوتها إلى نوع من الزئير المنخفض . وزادت هذه الصيحات ارتفاعا . وسرعان ما رأيته يقترب .. كان أبى أو على الأقل استنتجت أنه أبى على ضوء ما رأيته من براهين ذلك الوقت.

لم يكن أبى يثير الإعجاب ككشأن غيره من الآباء عادة . كان نصف انسان ونصف قرد . ومع ذلك فلم يكن قردا ولم يكن إنسانا . لا أستطيع وصفه على وجه التحديد فليس كمثل شئ على سطح الأرض أو تحت الأرض أو داخل الأرض . إلا أنه كان رجلا عظيما فى عصره ولا بد أنه كان بزن مائة وثلاثين رطلا ، ووجهه عريض مفرطح ، ويغشى حاجباه عينيهِ الصغيرتين الغائرتين المتقاربتين . ولم يكن له أنف على الإطلاق إذ كان أفتس عريضا لا قصبية له ينتهى بثقبين فى الوجه مفتوحين إلى فوق.

أما جبينه فمُنحدر إلى الوراء ابتداء من العينين ويبدأ شعر رأس من فوق العينين مباشرة حتى يغطى الرأس الصغير بدرجة غير معقولة ويستند إلى عنق قصير سميك بدرجة هى الأخرى غير معقولة.

وأما الصدر فعميق عمق الكهف وليست به عضلات كاملة الانتفاخ ولم يكن فى جسده استقامة واضحة أو اتساق كريم . وكان جسد أبى يمثل القوة .. القوة بالإجمال . القوة المتوحشة البدائية التى صنعت لتقبض وتمسك وتمزق وتحطم . وفخذاه نحيفتان وساقاه هزيلتان يغطيهما الشعر وبهما اعوجاج وعضلاتهما مشدودة . وساقا أبى فى الواقع تشبهان الذراعين وهما مفتولتان ومعقدتان

وليسنت لها بطن الساق الممتلئة التى تزين ساقك وساقى . وأذكر أنه لم يكن مستطيعا المشى على بطن القدم والسبب فى هذا هو أن هذه القدم قابضة أقرب إلى اليد منها إلى القدم وبدلا من أن يكون أبهام قدمه فى صف واحد مع بقية أصابع القدم كان يعارض هذه الأصابع معارضة أبهام اليد مما كان يمكنه من أن يقبض بقدمه..

ولكن مظهره لم يكن أكثر غرابه من طريقتى فى مجيئه إلينا حيث كنا أنا وأمى جاثمين فوق الخنازير البرية الغاضبة . جاء عبر الأشجار يقفز من غصن إلى آخر ومن شجرة إلى أخرى . وجاء مسرعا وأستطيع أن أراه الآن بعين اليقظة وأنا أكتب هذا وهو يتأرجح خلال الأشجار طول طريقه إلينا مخلوقا ذا أربع أيد يغطيه الشعر وهو يصيح غاضبا ويتوقف من وقت لآخر ليضرب صدره بقبضتى يديه ثم يقفز مسافة عشرة أقدام أو خمسة عشر قدما فى كل مرة ويمسك فرع شجرة بيد وينأرجح إلى فرع شجرة آخر يمسكه بيده الأخرى ، ويمضى دون أن تردد ولا يضل طريقه أبداً بين الأشجار.

وكنت وأنا أرقبه أحس داخل كيانى وفى عضلاتى الحافز وهذه الرغبة فى أن أمضى قافزا من غصن إلى آخر وأحس أيضاً ضمان القوة الكامنة فى ذلك الكائن وفى عضلاتى . ولم لا ؟ أن الأولاد الصغار يرقبون آباءهم وهم يطوحون البلطة ويسقطون الأشجار ويحسون فى أنفسهم أنهم سيطرحدون البلطة ، ويسقطون الأشجار يوما ما . وهكذا الأمر معى . كان تكوينى يقضى بأن أقفل ما كان أبى يفعله ، ويهمس لى سرا مشيرا طموحى بالطرق الهوائية والطيران فى الغابة .

وأخيراً لحق أبى بنا . وكان غاضبا أشد الغضب ، وأذكر كيف برزت شفته السفلى ، وهو يطل غاضبا على الخنازير البرية ، ويعوى كالكلب ، وأذكر أنيابه الكبيرة كتياب الحيوان ، وقد تأثرت بها تأثرا كبيرا .

ولم يسفر سلوكه هذا إلا عن زيادة هياج الخنازير . وكسر بعض أطراف الأغصان والفروع الصغيرة ، وألقى بها على أعدائنا . بل أنه تدلى بإحدى يديه يكيدها ويعذبها بالأمل الكاذب بينما هو بعيد عن أن تصل إليه . وسخر منها ، وهى تصر على أسنانها فى غضب العاجز ، ولم يكف بهذا ، بل كسر فرع

شجرة، وكان الفرع سميكاً وتعلق بيد وقدم ولكن الوحوش فى جنوبها ، ولطمها بعنف على أنوفها ، ولا حاجة بى إلى أن أقول أننا استمتعنا بهذه اللعبة أنا وأمى . ولكن المرء يمل كل الأشياء الطيبة . وفى آخر الأمر مضينا فى طريقنا عبر الأشجار ، وأبى يقهقه بخبث وهو يتقدمنا . والآن انحسرت أطماعى وأصبحت خائفاً - أتمسك بأمى بامعان ، وهى تتسلق فروع الأشجار وتتأرجح فى الفضاء . وأذكر أن فرع شجرة انكسر تحت وطأة ثقلها ، لأنها كانت قد قفزت قفزه واسعة وإذ انكسر فرع الشجرة غلبنى شعور ممض بسقوطنا أنا وأمى فى الفضاء وزهبت من عينى رؤيا الغابة وأشعة الشمس المنعكسة على أوراق الشجر ولحت أبى لحة ذابلة وهو يقف فى تقدمه فجأة لينظر ويعدئذ لم أر سوى الظلام .

وفى اللحظة التالية استيقظت فى فراشى المغطى بالملاءة والعرق يتصبب من جسدى وأنا أرتعد وقد أصابنى النوار . وكانت النافذة مفتوحة والهواء البارد يهب على داخل الغرفة ومصباح الليل يضى بهدوء . ولهذا السبب أرى أن الخنازير البرية لم تلحق بنا وأنا لم نسقط على الأرض وإلا لما كنت هنا الآن بعد ألف قرن من الزمان أنذكر ما حدث .

والآن ضع نفسك فى مكانى لحظة . سر معى قليلاً فى طفولتى الرقيقة وشاركنى فراشى ليلاً وتصور نفسك تحلم مثل هذه الأحلام غير المفهومة أحلام الرعب . تذكر أنى كنت طفلاً بلا تجربة وأنى لم أر فى حياتى من قبل خنزيراً برياً أبداً بل أنى لم أر حتى الخنزير المستأنس وأقرب نقطة إلى المستأنس وصلت إليها هى لحم خنزير بطش فى دهنه طعام أقطارى ومع ذلك فهنا خنازير برية حقيقية كالحياة نفسها تندفع فى أحلامي . وأنا وأبواى الخياليان نتأرجح بين الأشجار السامقة .

فهل تعجب لأنى كنت خائفاً ، وتضايقتى الليالى الحافلة بالكابوس . لقد كنت مغضوباً على . وأسوأ من ذلك أنى كنت أخاف الكشف عنها ، ولا أعرف لذلك علة إلا أنى كنت أشعر بالذنب وأن لم أعرف ما هو ذنبى على التحديد . وهكذا قضيت أعواماً طويلة وأنا أعانى فى صمت ، حتى بلغت مبلغ الرجال ، وعرفت السبب فى أحلامي ومصدرها .

## الفصل الرابع

وفى ذكرياتى عن عهد ما قبل التاريخ شئ محير هو غموض عنصر الزمن . إذ لا أعرف أبداً أسبقية الأحداث . ولا أستطيع أن أعرف ما إذا كان قد انقضى بين حادث وآخر سنة أو سنتان أو أربع أو خمس سنوات . وكل ما أستطيع أن أعرفه عن مرور الزمن إنما على وجه التقريب ، وذلك على ضوء التغييرات التى تحدث فى مظهر وسلوك رفاقى .

وأستطيع أيضاً أن أطبق منطق الأحداث على الوقائع المختلفة . فمثلاً لا شك على الإطلاق فى أن الخنازير البرية قد ألجأتنى أنا وأمى إلى الأشجار وجعلتنا نهرب ونسقط وأن هذا قد حدث قبل تعرفى على مسترخى الأذن رقيق صباى . ومن المقطوع بصحته أيضاً أنى تركت أمى فى وقت يقع بين هاتين الفترتين . ولا أذكر عن أبى شيئاً غير ما ذكرته . إذ لم يعد للظهور أبداً فيما تلا ذلك من سنوات . وعلى ضوء معرفتى بتلك الازمنة أجِد التفسير الوحيد الممكن لذلك فى أنه لابد أن يكون قد هك بعد المغامرة التى وقعت مع الخنازير البرية بوقت قصير . ولا جدال فى أن نهايته جاءت مبكرة قبل الأوان إذ كان كامل القوة ، موفور الصحة ، ولا يمكن أن يموت إلا ميتة مفاجئة وعنيفة ولكن لا أعرف كيف مات .. هل غرق فى النهر ، أم ابتلعه ثعبان ، أم دخل بطن النمر ذى الأنياب الشبيهة بالسيوف ؟ كل هذا لا علم لى به .

وكل ما أعرفه هو أنى لا أذكر غير الأشياء التى رآتها عينائى فى تلك الأيام السابقة للتاريخ . ولم تقل أمى لى أبداً ما إذا كانت قد علمت نبأ وفاة أبى . وأشك فيما إذا كانت لديها حصيلة من المفردات تكفى لنقل هذه المعلومات . وربما كانت القبيلة فى تلك الأيام مفردات ذات ثلاثين أو أربعين صوتاً .

وأذكر - وإن كنت بهذا الذكر أسبق قصتي - دعنى أذكر لك قصة مسترخى الأذن - وصداقتى معه. ففى بواكير صباى انفصلت عن أمى. وربما كان سبب هذا الانفصال أنها اتخذت لها زوجاً آخر بعد وفاة أبى، وأتى لأجل هذا الزوج ذكريات ولكنها ذكريات لا تسرر كان نزعاً خالياً من الصلابة ذرب اللسان لا يكف عن ثورته الجهنمية التى لا تزال تزعجنى كلما فكرت فيها . أما تفكيره ، فليس فيه التسلسل الذى يسمح له بأن يحدد له غرضاً . وأن القدرة فى أقفاصها لنذكرنى به دائماً فهو أقرب إلى القدرة منه إلى الانسان ، وهذا هو خير ما أصفه به .

ولقد كرهنى منذ البداية ، وعلمنى أن أخافه وأن أخاف مرحة الخبيث ، حتى إذا لمحت عيناى زحفت أدنو من أمى وأتعلق بها . واستمر نموى ، ولم يعد هناك مهر من أن أبعد عنه من حين لآخر ، وأن تتسع فترات ابتعادي عنه أكثر فأكثر ، ولكم كان «الثرثار» يتربق هذه الفترات (وأستطيع هنا أن أوضح أيضاً أنه لم تكن لنا أسماء ، فى تلك الأيام ، ولكن أخفف عليك العيب اضفيت من عندى أسماء على جميع الذين وثقت صلتى بهم واسم الثرثار وأصدق وصف استطعت الوصول إليه لمطابق زوج أمى العزيز أما أنا فأنا الضب (لأن اسنانى الامامية كبيرة جدا) . ولنعد الآن إلى الثرثار ، وكثيراً ما أثار رعبى وقرصنى ولطمنى ، بل وأحياناً كان يعضنى ، وغالباً ما تدخلت أمى وأمعتنى بآثارها غضبه ، حتى يغلى غيظاً ، فينتهى ذلك إلى نزاع عائلى لا ينتهى أكون فيه مثار النزاع .

كلا . لم تكن حياتى البيئية سعيدة ولكم أبتسم لنفسى ، وأنا أكتب عبارة حياتى البيئية !

البيت ! لم يكن لى بيت بالمعنى الحديث لهذا الاصطلاح . فبيتى كان مجتمعاً لا سكنى .

كنت فى رعاية أمى التى تعيش فى أى مكان إذا حل الليل ، ووجدت هذا المكان مرتفعاً عن الأرض .

وأسمى من الطراز القديم متعلقة بأشجارها . صحيح أن أعضاء قبيلتنا الأكثر تقدماً يسكنون الكهوف فوق النهر ولكن أمى كثيرة الشك كما أنها كانت غير

وأسميها أصواتاً لا كلمات لأنها كانت أصواتاً أولاً . ولم تكن لها قيم محددة يمكن أن تتغير بالصفات والظروف لأن أنوات الكلام التى نستخدمها الآن لم تكن قد اخترعت بعد . ولم تكن نصف الأسماء أو الأفعال باستخدام الصفات والظروف . بل كنا نصف الأصوات بتغيير درجة الصوت أو كميته أو عمقه أو بالبطء والإسراع وكان طول الوقت الذى يستغرقه نطق الصوت بلون معناه .

ولم يكن لدينا تصريف أفعال ، وأنا يحكم المرء على زمن وقوع الفعل بالمضمون وما كنا نتكلم إلا الأشياء الثابتة لأننا لم ن فكر إلا فى الأشياء الثابتة ، وأغلب اعتمادنا على الإشارة الثابتة إذ أن أبسط الأشياء المجردة تفوق قدرتنا على التفكير وإذا حدث أن فكر المرء فى أحد هذه الأشياء المجردة تعذر عليه أن يوصله إلى رفاقه ، وأجهد نفسه عبثاً فى محاولة تجاوز حصيلته من المفردات . فإن هو ابتكر أصواتاً لها ، ما استطاع رفاقه فهم هذه الأصوات ، فيعود إلى الاشارات الصامتة يصور بها الفكرة . ما أمكنه ذلك ، ويأخذ فى ترديد الصوت الجديد المرة تلو المرة .

وهكذا نمت لغتنا ، واستطعنا بالأصوات القليلة التى لدينا أن ن فكر فيما هو وراء هذه الأصوات بمسافات قليلة . وهنا ظهرت الحاجة إلى أصوات جديدة للتعبير بها عن الأفكار الجديدة وعلى كل حال ، فقد كنا أحياناً ن فكر فيما يسبق أصواتنا بمسافات طويلة ، واستطعنا تحقيق المعانى المجردة (واعترف بانها قليلة) ، ولكننا قبلنا تماماً فى جعل غيرنا يدركها . ومهما كان من أمر فإن نمو اللغة فى تلك الأيام لم يكن سريعاً .

صدقتنى . لقد كنا بسطاء بصورة تثير العجب . ولكننا عرفنا أشياء لم تعد الآن معروفة . فمثلاً استطعنا تحريك أذاننا إلى أعلا أو إلى أسفل باردتنا ، كما استطعنا حك ما بين الكتفين بسهولة وإلقاء الحجارة بأقدامنا وقد فعلت أنا ذلك عدة مرات . وكنت مستطيعاً أن أبقى ركبتي مستقيمتين ، وأنا أنحنى إلى الأمام حتى ألس الأرض بمرقى لا بأطراف أصابعى فحسب . أما من ناحية الاعشاش التى كنا نسكنها فإنى لا أتمنى أكثر من أن يستطيع غلام القرن العشرين رؤيتها . ولكننا لم تكن نجمة البيض فى تلك الاعشاش بل كنا نكتفى بأكله .

تقدميه . وكانت تكفيها الاشجار ، وكانت لنا طبعاً شجرة خاصة نجثم عليها . أما إذا فاجأنا الليل في مكان بعيد عن هذه الشجرة ارتقينا أية شجرة لنقضى عليها الليل . أما الشجرة الخاصة فعند ملتقى فروعها منصة بدائية مكونة من أغصان الأشجار وبعض النباتات المتسلقة ، وهي أقرب شئ إلى عش طائر ضخم وإن كان نسيجه ، أغلظ ألف مرة من نسيج عش الطير ، كما أنه ينفرد بميزه أخرى هي أن له سقفاً .

ولم يكن سقفاً مثل تلك السقوف التي يصنعها الإنسان الحديث ! كما أنه لم يكن سقفاً كالذي يصنعه أقل الناس حضارة في المناطق النائية ، بل فاق أى عمل يدوي بدائي، الإنسان كما نعرفه جمع بعضه إلى البعض الآخر حسبما اتفق . ففوق ملتقى الفروع كومة من الأغصان والأعشاب الجافة انتصبت فوقها أربعة أو خمسة فروع متجاورة يمكن أن أصفها بأنها قوائم الشرفة . وليست هذه التوائم أكثر من مجرد عصا غليظة لا يزيد سمك الواحدة منها عن بوصة أو ما يقاربها . ومن فوقها مدت بضعة أغصان وأعشاب جافة يبدو أنها ألقيت حسبما اتفق ولم تبدل أية محاولة لصنع سقف منتظم . ويجب أن أعترف بأن الأمطار الغزيرة كانت تتخلل هذا السقف بصورة تبعث على الرثاء .

ولكن الثرثار جعل الحياة البيئية عبئاً ثقيلاً على أمي وعلى ولا أعنى بهذه الحياة العيش نفسه بل الحياة التي تجمع ثلاثتنا . فقد كان شريراً في اضطهاده إيائي وتمرور الزمن أصبحت أمي أقل حماساً في الدفاع عني وأحسست من الضجيج المستمر الذي كان الثرثار يثيره أني أصبحت مصدر ضيق لها ، وعلى أية حال فقد سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ بسرعة أوجبت على أن أهجّر البيت بارادتي ولكن حتى لذة الرضى بقيامي بهذا العمل الاستقلالي حرمت منها إذ قبل أن أستعد للذهاب ألقى بي خارج البيت وأعنى هذا حرفياً .

فقد أتاحت الفرصة للثرثار ذات يوم ذهب فيه هو وأمي بعيداً نحو مستنقع التوت الأزرق، وتركاني وحدي في العش . ولابد أنه دبر الأمر كله من قبل فقد سمعته عائداً وحده خلال الغابة يزار مفتعلاً الغضب ، ويتوقف من وقت لآخر يدق صدره ، يقبضة يده كشأن رجال قبيلتنا حين يغضبون .

وأدركت عجزى ، وضعف موقفى ، وقبعت في العش أرتعد . وجاء الثرثار مباشرة إلى الشجرة ، وأذكر أنها كانت شجرة سنديان - وأخذ يتسلقها وهو لا يكلف لحظة واحدة عن ضجته الجهنمية . ولغتنا كما قلت من قبل ضئيلة جداً ، ولابد أنه أرقق نفسه بتعدد الطرق التي استخدمها في إبلاغى كراهيته إيائي تلك الكراهية التي لاتنتهي واعتزاهم تصفية الموقف معي في تلك اللحظة .

وفي أثناء تسلقه الشجرة إلى العش ، هربت على طول فرع الشجرة الأفقى الكبير ، وتبعنى ، وأخذت أبتعد أكثر فأكثر وأخيراً أصبحت بين الأغصان الصغيرة والأوراق .. وكان الثرثار جباناً وحزناً ، دانماً يفوق أى غضب يفتعله ، خاف أن يتبعنى إلى خارج العش حيث الأغصان صغيرة لا تحتمل ثقله فيسقط أول أن يلحق بي .

ولم يكن ضرورياً أن يلحق بي ، وكان يعرف هذا جيداً ذلك الوغد ، وأخذ يتأرجح وقد ارتسم الحقد على وجهه ، ولعت المعرفة القاسية في عينيه الضيقتين ! وأخذ يتأرجح وأنا عند طرفي الغصن أمسك بطرفه الضعيف الذي أخذ يتشقق ، وينكسر تحت ثقلى ، وأنا أرى الأرض تحتى على عمق عشرين قدماً .

وظل يتأرجح بضراوة تتصاعد ، مكشراً عن أنيابه ، كاشفاً عن كراهيته . وهدئذ جاءت النهاية فانكسر طرف الغصن الذي كنت ممسكاً به وسقطت وظهري إلى أسفل ، وأنا أتطلع إليه ويدي وقدمائى ممسكة بطرف الغصن المكسور ، ولحسن حظى لم تكن هناك خنازير برية تحتى كما أن فروع الشجرة المرنة تلتفتنى هي سقطتى فرعاً بعد الآخر .

والسقوط يحطم أحلامي فالصدمة العصبية كافية لعبور آلاف القرون في لحظة لتوقظنى يقظة كاملة وأنا في فراشى الصغير ، حيث أكون راقداً أتصعب عرقاً ، وأرتعد ، وأنا أسمع الساعة في الجهو تدق معلنة الوقت ، ولكنى كثيراً ما رأيت نفسى في الحلم أنا أخرج من بيتى على هذا النحو ، ومع ذلك ففى كل مرة كنت أستيقظ ، وأنا أسقط صارخاً في الغابة ، وأصطدم بالأرض .

وظللت راقداً حيث سقطت وقد أصابتنى الخدوش والجروح ، وأنا أبكى وأتطلع إلى فوق ، فأرى الثرثار من خلال الشجرة ، وقد أخذ يفنى أغنية فرح شيطاني بضبط ايقاعها بتأرجحه .

وأُسْرعت بالكف عن البكاء إذ وجدت أن الأشجار لم تعد تحميني ، وعرفت مبلغ الخطر الذي عرضت نفسي له بالتعبير عن حزني بالبكاء بصوت مسموع ، يجلب لي الحيوانات المفترسة .

وَأَذكر أني حين كَففت عن البكاء ، بدأت أهتم بمراقبة التأثيرات الضوئية التي تنجم من فتح وإغماض جفني الملتهبين بالدموع ، وأخذت أفحص آثار سقوطي في جسدي ، ووجدت أني لم أصب بعطب شديد . فلم يكن هناك أكثر من تسليخ جلدي هنا وهناك ، وغير طرف فرع الشجرة مكسور مشقق وحاد الطرف انغرس في زندي بوصة كاملة أما فخذى اليمنى فكانت هي التي تحملت صدمة الارتطام بالأرض ، فأخذت تؤلمني إيلاما يفوق طاقتي على الاحتمال . وهي كلها على كل حال أضرار طفيفة والمهم أن عظامي لم تنكسر وقد تميز لحم الإنسان في تلك الأيام بقابلية للشفاء أكثر من قابليته لذلك الآن . ومع ذلك فقد كانت السقطة شديدة لاني أخذت أعرج بسبب إصابتي في فخذى اسبوعا كاملا .

ورأودني وأنا راقد في الغابة إحساس بالوحشة وإدراك بانى شديد ، وقررت عدم العودة إلى أمي والثرثار . وفضلت أن أمضى بعيدا خلال الغابة الرهيبة حتى أجد لي شجرة أستقر فيها .

\*\*\*

أما من ناحية الطعام فأتانا أعرف أين أجده لاني قضيت العام الماضي على الأقل أعتد على نفسي في البحث عن الطعام ، وأقلل من اعتمادي على أمي في حمايتي وإرشادي .

وزحفت بهدوء بين الأشجار . وتطلعت ذات مرة إلى الوراء ، فرأيت الثرثار يغني ويتأرجح . وكان منظره لايسر العين . وعرفت جيدا كيف أكون حذرا ، شديد الحذر في رحلتي هذه ، وهي أول رحلة لي في العالم .

ولم أفكر في مكان معين أذهب إليه ، إذ كان هدفي الوحيد هو الابتعاد عن متناول يد الثرثار وارتقيت الأشجار ، وقضيت الساعات من شجرة إلى أخرى دون أن ألمس الأرض ، ولم أتجه وجهة معينة ولم أمض في رحلتي قدما . كان من طبعي وطبع جميع أهلي في القبيلة عدم المتابعة . وفضلا عن ذلك فلم أزد عن أن أكون طفلا ، وكثيرا ماتوقفت أثناء الطريق لألعب .

- ٢٦ -

والأحداث التي وقعت لي أثناء مغادرتي بيتي يكتنفها الغموض ، وأحلامي خيالية منها ، وقد نسيت ذاتي الأخرى الكثير من تلك الأحداث ، وخاصة في هذه الفترة بالذات . ولم تستطع جميع الأحلام المختلفة سد الشغرة التي تقع بين مغادرتي شجرة بيتي ووصولي إلى الكهوف .

كل ما أذكره أنني وصلت عدة مرات إلى أماكن مكشوفة خالية من الأشجار وأنسى كدت أرتجف أثناء عبوري وأنا أجرى بأقصى ما وسعني من سرعة . كانت هناك أيام مطرره وأيام أخرى مشرقة . ولا بد أن أكون قد تجولت وحدي وقتنا طويلا . وأرى في أحلامي بصفة خاصة ما كنت أعانيه من شقاء أثناء المطر وما أحسه من جوع وكيف كنت أحاول تخفيف هذا العناء .

وقد تخلق في ذهني انطباع قوى جدا وهو انطباع صيد السحالي الصغيرة على قمة رابية صخرية مكشوفة وكانت السحالي تزحف تحت الصخور ويهرب أغلبها ولكني كنت أقلب حجرا ما فاسمك واحدة منها .

وقد طاردتني الثعابين وطردتني من هذه الرابية . ولم تستمر في مطاردتي بل كانت تكفي بالاستمتاع بأشعة الشمس على الصخور ومع ذلك فقد كان خوفا منها ذلك الخوف الموروث الذي دفعني إلى الهرب منها بنفس السرعة التي كنت أهرب إليها لو أنها أهتمت بمطاردتي .

كنت أقضم لحاء الأشجار الصغيرة ، وطعمه مر ، وأذكر بصورة غامضة أنني أكلت عدة ثمار بندق لم يتصلب غلافها بعد وكان قشرها هشاً وأذكر بوضوح شديد أنني كنت أعاني ألماً في المعدة وربما كان سبب ذلك البندق الأخضر أو السحالي ولست أستطيع على أي حال أن أحدد أيهما كان السبب .

ولكن الذي أعرفه فعلا هو أنني كنت سعيد الحظ ، إذ لم يلتهمني حيوان ما أثناء الساعات العديدة التي تكورت فيها على الأرض من فرط الألم .

- ٢٧ -

## الفصل الخامس

وفجأة بعد أن خرجت من الغابة وجدت نفسى على حافة مكان مكشوف فسبح  
على أحد جانبيه جرف عال وعلى الجانب الأخر نهر ، يتحدر شاطئه الطينى  
انحدارا شديدا نحو الماء ، وقد أنهارت أجزاء من الشاطئ الطينى فى عدة أماكن  
هذا وهناك ، وظهرت دروب يسلكها أعضاء القبيلة الذين يعيشون على الكهوف  
هين بطلبون الماء .

والكهوف هى المأوى الأساسى للناس . وقد ساقنتنى الصدفة إليها . بل أن تلك  
الكهوف هى القرية ، إن جاز لى التوسع فى استخدام هذا التعبير . وأمى والثرثار  
وأنا وبعض البسطاء الآخرين ممن يمكن تسميتهم سكان الضواحي جزء من  
القبيلة .

وإن كنا نعيش بعيدا عنها وهو بعد ليس شاسعاً ، وبالرغم من ذلك فقد قطعته  
فى أسبوع كامل ، لأننى ضللت الطريق ، ولولا ذلك لقطعتم الرحلة فى ساعة واحدة .  
ولكن لئلا نعد الآن إلى حيث كنت ، فقد رأيت وأنا على حافة الغابة الكهوف فى  
طرف الأرض الفضاء المكشوفة والدروب المؤدية إلى النهر ، ورأيت فى الأرض  
الفضاء عدداً كبيراً من أعضاء القبيلة وأنا ضال وحيد منذ أسبوع لم أر خلاله  
أحداً من نوعى . بل قضيت الأسبوع فى رعب ووحدة فلما رأيت نوعى الآن غلبنى  
الإحساس بالسعادة وجريت نحوهم بسرعة فائقة .

وعندئذ حدث شئ غريب . إذ رأتى واحد من القوم وصاح صيحة تحذير  
فأسرع القوم بالهرب وهم يصيحون فى خوف ونزع وقفزوا وتدافعوا فوق الصخور  
واختلطوا داخل الكهوف .



أختفوا جميعا عدا واحدا منهم هو طفل صغير سقط من أيديهم في لحظة الاضطراب بالقرب من قاعدة الجرف . وكان الطفل يولول في حزن وانددت أمه خارجة . وقفز الطفل للقائنها وتعلق بها بقوة وهي تتعثر عائدة إلى داخل الكهف . وأصبحت وحدي في المكان الفسيح المهجور فجأة فجلست أبكى في ياس دون أن أستطيع فهم ذلك السبب .

لماذا هربوا مني . قد علمت فيما بعد أنهم عندما رأوني مندفعاً من الغابة بأقصى سرعة ظنوا أن حيوانا مفترسا يطاردني ، فخافوا وهم يرونني أقترب منهم دون كلفة .

وإذ جلست أرقب مداخل الكهوف ، أدركت أن القوم يرقبوني وسرعان ما أطلوا بروسهم ، وبعد قليل أخذوا ينادون بعضهم بعضا لأنهم اضطربوا ، وهم خانقون ، لم يدخل كل منهم كهفه ، بل لجا البعض وخاصة الأطفال ، إلى كهوف البعض الآخر . ولم تكن أمهاتهم تتأديهم بأسماء لأن التسمية اختراع لم تكن قد عرفناه بعد . وصاحت الأمهات صيحات قلق غاضبة ، وكان الصغار يدركونها ، ولو أن أمي كانت بينهم تتأديني ، لتعرفت على الفور على صوتها بين أصوات ألف أم ، لأنها كانت أيضاً تعرف صوتي بين أصوات ألف طفل .

واستمرت النداءات بعض الوقت ، ولكنهم كانوا غاية في الحذر ، فلم يبرحوا كهوفهم أو يزلوا إلى الأرض .

وأخيرا خرج واحد منهم قدر له أن يلعب دورا كبيرا في حياتي ولعب من قبل أنوارا كبيرة في حياة أعضاء القبيلة . وسأطلق عليه اسم «العين الحمراء» وسبب هذه التسمية عيناه اللتهبتان وجفناه الداثما الحمراء وتأثيرهما الغريب الذي يندثر بوحشيته الرهيبة .

إنه شيطان رهيب من كل ناحية . فهو من الناحية البدنية عملاق ولابد أنه يزن مائة وسبعين رطلا وهو أضخم من رأيت من نوعا ، ولم أر أحدا قط من أهل النار أو من أهل الشجر في ضخامته .

وإذا صادف أن قرأت في الصحف أوصاف السحابين والملاكين والمصارعين المعاصرين لتسأل ماذا كان يمكن أن يصير إليه أمر أعظم واحد من هؤلاء لو

أنه التقى بالعين الحمراء؟ إذن لما كانت له أية فرصة للنجاة . فبقبضة واحدة من «العين الحمراء» بأصابعه الحديدية وجذبة واحدة يستطيع أن يتزح عضلة من جذورها تماما سواء أكانت العضلة عضلة كتف أم عضلة فخذ ويفصلها عن جسدها ، وإذا هو أهوى بقبضة يده على جماجمهم لحطمها كقشر البيض وإذا ركلهم بقدمه أو (يده الخفيفة) لأخرج أمعايمهم من بطونهم .

وإذا ثنى أعناقهم كسرهما وأعرف أنه يستطيع أن يطبق فكبه على عنق رجل ما فتتخذ أسنانه من مقدمة العنق حتى النخاع الشوكي في مؤخرة العنق .

وفي استطاعته أن يكون جالسا ثم يقفز أفقيا مسافة عشرين قدما . والشعر يغطي جسده بصورة شنيعة وكان من بواعث فخرنا ألا يكون شعرنا كثيفا ، ولكن الشعر يغطي جسده كله سواء في ذلك باطن الذراعين وظاهرها بل والأذنين أيضا وليس في جسمه مواضع خالية من الشعر سوى كفيه وبواطن قدميه وتحت عينيه . وهو قبيح بصورة مخيفة تتلامم تكشيره الوحشية عن أسنانه وشفته السفلى الضخمة المتدللية مع عينيه الرهيبتين .

هذا هو صاحب «العين الحمراء» وقد زحف خارجا من كهفه بنشاط وهبط إلى الأرض غير عابئ بشيء ومضى يستطلع الأمر .

ومضى منحني القامة إلى الأمام إنحناء شديدا ويزاعاه من الطول بحيث تلمس مفاصل أصابع يديه الأرض مع كل خطوة على هذا الجانب مرة وعلى الجانب الآخر المرة التالية وهو سخيخ في وضعه نصف المنتصب الذي اتخذته لنفسه في مشيته وهو يلمس الأرض حقا بمفاصل يديه ليوازن نفسه . ولكن دعني أقول لك أنه يستطيع الجرى علي أربع وهذا أمر كنا فيه غير بارعين .

وفضلا عن ذلك فمن النادر أن تجد بيننا من يستطيع موازنة نفسه بمفاصل أصابعه أثناء المشي . لأن من يفعل ذلك إنما يكون مرتدا إلى الأصل «والعين الحمراء» أكثرنا ارتدادا إلى الأصل .

كان ذلك ارتدادا إلى الأصل إذ كنا في مرحلة التحول من حياة الشجر إلى الحياة على الأرض . تلك المرحلة التي اجتزناها في قرون طويلة وفيها تناول التغير أجسامنا وسلوكنا ولكن «العين الحمراء» كان مرتدا إلى طراز أهل الشجر البدائين .

وقد بقي معنا قهرا لأنه ولد في قبيلتنا وبقي معنا ولكنه في حقيقة الأمر كان مرتدا إلى الأرض وما كان موضعه معنا بل في مكان آخر .

وأخذ يتحرك هنا وهناك في حذر ويقتطع في المكان العراء يظل بين الأشجار محاولاً أن يلمح الحيوان الذي شك الجميع في أنه يطاردني . وتجاهلني وهو يفعل ذلك وتزاحم أعضاء القبيلة عند مداخل الكهوف يرقبون .

وأخيرا قرر بداهة أنه ليس هناك أى خطر كما من وعاد من رأس مورد الماء حيث أطل على المكان الذى تشرب الحيوانات الماء عنده واقترب منى ولكنه لم يلاحظني حتى أصبح قبالتى .

وعندئذ ويبون انذار وبسرعة تفوق حد التصور لطمنى على رأسى فالتقتى بعيداً إلى الورا مسافة عشرة أقدام حيث استطعت الوقوف على قدمى . وأذكر أنى سمعت وقت وقوع اللطمة وقبل أن يصيبنى الذهول من أثرها ضجيج قهقهة وضحك صارخ أت من الكهوف . كانت دعابة كبيرة - على الأقل ذلك اليوم وقدراها الجميع تقديرا كبيرا صحيحا .

هكذا استقبلتني القبيلة . ولم يعرني صاحب «العين الحمراء» انتباها آخر وظللت حرا أبكى ماشئت حتى رضى قلبى . وتجمعت حولى عدة نساء في فضول وعرفتني حيث سبق أن قابلتهن في العام الماضى حين اصططبتني أمى إلى وديان البنوق .

ولكن سرعان ماتخلين عنى وتركتني وحيدا ثم جاء عشرة من الصبية الصغار الفضوليين المشاغبين وضربوا ناطقا حولى وأخذوا يشيرون بأصابعهم ويلعبون بلامح وجوههم وينخسوننى ويرقصوننى وأنا خائف منهم وتحملتهم بعض الوقت حتى غلب على الغضب فقفزت على أشدهم جراءة وهجمت عليه بأسنانى وأظفارى . كان هذا هو «مسترخى الأذن» نفسه وقد أطلقت هذا الاسم عليه لأنه كان مستطيعا تحريك واحدة فقط من أذنيه أما الأخرى فكانت مدلاة خدرة لا تتحرك وذلك سببه وقوع حادث له من قبل أصاب عضلاتها وحرمه من استخدامها .

وأشتبكنا في عراك وأشهدنا العالم علينا كغلامين يقتتلان وتبادلنا الخدش والعض وجذب الشعر والقرص والقذف على الأرض .

وأذكر أننى قد تجحت في إمساكه على نحو أتاح لى فرصة التغلب عليه ولكنى لم أستمتع بها طويلا فرفع ساقا وركلنى بقدمه فى بطنى بوحشية حتى كاد يخرج أمعائى واضطرت لإخلاء سبيله لى أنقذ نفسى وعدنا إلى التماسك بالأيدي .

و«مسترخى الأذن» يكبرنى بعام ولكن غضبى كان يعدل عدة أمثال غضبه وأخيرا أسرع بالهرب وطارده عبر الأرض القضاء ثم على طول الدرب النازل نحو النهر ولكنه كان أكثر منى معرفة بتلك المواقع فجرى على طول الشاطىء وصعد دربا آخر واختصر طريقه فى الأرض العراء بزواية واندفع داخلا كهفا واسع المدخل .

ورائتى أدخل وراه فى الظلام دون أن أدرك ذلك . وفى اللحظة التالية انتابنى خوف شديد إذ لم يسبق لى دخول أى كهف من قبل وأخذت أبكى وأصيح . وأخذ «مسترخى الأذن» يثرثر ساخرا منى وقفز على دون أن أراه وأوقعننى على الأرض . ومع ذلك فإنه لم يجازف بالدخول فى معركة أخرى بل أبتعد عنى وأنا أعتبرض سبيله إلى المدخل ولم يتجاوزنى ومع ذلك فقد بدا لى أنه أنصرف عنى وأنصت ولكنى لم أجد مايدلنى على مكانه . وحيرنى هذا . وعندما عدت إلى الخارج جلست أرقب .

ولم يخرج من مدخل الكهف ، هذا أكيد ، ومع ذلك فبعد انقضاء عدة دقائق سمعته يقهقه عند مرفقى وعدت أجرى وراه وأسرع داخلا الكهف ولم أتبعه وقتت بمدخل الكهف ورجعت إلى الورا مسافة قصيرة أراقب . ولم يخرج ومع ذلك فقد فعل ماقله من قبل إذ أخذ يقهقه عند مرفقى وطارده مرة ثالثة إلى داخل الكهف . وتكرر هذا العمل عدة مرات أخرى . ثم تبعته إلى داخل الكهف حيث بحثت عنه عبثاً وعجبت من هذا الأمر ولم أستطع أن أفهم كيف زاغ منى . كان دائما يدخل الكهف ولا يخرج منه قط ومع ذلك فكان دائما يأتى إلى مرفقى ويسخر منى . وهكذا تحول عراكتنا إلى لعبة الاستخفاف «القط والفأر» .

وقضينا فترة مابعد الظهور كلها الا ما تظلمنا من فترات استراحة نمارس هذه اللعبة وتمت بيننا روح ودية لاهية .

وانتهت بانته لم يهرب منى بل جلسنا معا وقد أحاط كلانا الآخر بزراعة . وبعد قليل كشف سر الكهف الواسع المدخل وأمسك يدي وقادني إلى داخل الكهف فراهته متصلا بكهف آخر عن طريق فجوة ضيقة بينهما ومن خلال الكهف الآخر عدنا إلى الهواء الطلق .

وأصبحنا صديقين حميمين . وعندما تجمع الصغار الآخرون حولنا للمشاغبة انضم هو إلى في مهاجمتهم وكان هجومنا شديدا إلى حد أنه لم ينقض وقت طويل حتى تركوني لشأني وعرفني «مسترخي الأذن» بالقرية.

ولم يكن مستطعا أن يقول لى إلا القليل عن الظروف والعادات إذ لم تكن لديه الكلمات الضرورية . ولكنى تعلمت الكثير عن طريق مراقبة حركاته.

وأصطحبني عبر الأرض العراء بين الكهوف والنهر وإلى داخل الغابة وراء الأرض العراء حيث أكلنا وجبة كاملة من الجزر النامي في منطقة معشبة بين الأشجار . وبعد ذلك شربنا من النهر ومضيئا نضعد الطريق إلى الكهوف .

وفي ذلك الطريق صادفنا صاحب «العين الحمراء» مرة أخرى فانكمش «مسترخي الأذن» جانبا وقمع إلى جانب الشاطىء وقلدته طبعاً وتلقائياً . وعندئذ تطلعت لأرى سبب خوفه . كان صاحب «العين الحمراء» يتأرجح في هبوطه وسط الطريق ويضيق عينيه المتهبتين بوحشية . ولاحظت أن جميع الصغار ينكمشون لدى رؤيته كما فعلنا بينما كان الكبار يرمقونه بأعين متيقظة إذ يقترب ويتبعون جانبا متخلين له عن وسط الطريق .

\*\*\*

وجاء الغسق وأصبح المكان العراء مهجورا إذ أوى الجميع إلى كهوفهم ينشدون الأمان ويتقدمني «مسترخي الأذن» إلى الفراش . وارتقينا الجرف العالى حتى وصلنا إلى فجوة صغيرة ليتمكن رؤيتهما من الأرض . واعتصر «مسترخي الأذن» جسده في هذه الفجوة وتبعته بصعوبة إذ كان المدخل شديد الضيق ورأيتني في غرفة صخرية صغيرة لايزيد ارتفاع سقفها عن قدمين ولا طولها عن أربعة أقدام أو عرضها عن ثلاثة أقدام . ونمنا معا تلك الليلة ونحن متعانقان .

## الفصل السادس

وبينما ظل أكثر الصغار شجاعة يلهون باللعب داخل الكهوف ذات المداخل الواسعة ، وخارجها علمت أن هذه الكهوف خالية لاينام أحد فيها إلا إذ لم تكن القبيلة تستخدم من هذه الكهوف الا ماكان مدخله ضيقا ، وكلما ضاق مدخل الكهوف كان أفضل تحاشيا للحيوانات المفترسة التى تجعل الحياة عبئا ثقيلا فى النهار أو الليل .

وقد علمت فضل الكهوف الضيقة المدخل فى الصباح الأول بعد أن نمت ليلتي مع «مسترخي الأذن» . إذ دخل النمر «سن السيف» الأرض المكشوفة مطلع النهار وكان هناك اثنان من أعضاء القبيلة قد بكرأ باليقظة فاندفعا إلى داخل الكهف الواسع المدخل حيث كنت أنا و«مسترخي الأذن» تلعب بعد ظهر اليوم السابق ولا أعرف ما الذى دفعهما إليه . هل كان الذعر المفاجئ . أم قرب النمر العجوز «سن السيف» الشديد منهما بحيث تعذر عليهما معه محاولة تسلق الجرف إلى مداخل الكهوف العلوية .

ولا سبيل إلى معرفة ماحدث داخل ذلك الكهف ولكن من العدل أن نستنتج أن الاثنى تسلا من الفجوة الموصلة بين الكهفين وهى أصغر من أن تسمع «سن السيف» بالمرور منها فخرج من نفس الطريق الذى جاء منه وهو غاضب إذ لم يشبع حاجته . وكان واضحا أنه لم يوقف فى صيده فى الليلة السابقة فجاء يتناول وجبته الغذائية من أجسام بعضنا ورأى الاثنى عند مدخل الكهف الآخر فقفز نحوهما واندفع طبعاً عبر الفجوة إلى الكهف الأول وخرج أشد غضبا منه قبلا وهو يزار .

وسادت الفوضى بيننا وتزاحمتنا جميعا عند مداخل الكهوف وخارج الشرفات ونحن نثرثر ونصرخ صرخات بنغمات متعددة ومتفاوتة ونكشر عن أنيابنا ونزمر وهو عمل غريزي فقد كنا غاضبين غضب «سن السيف» إلا أن غضبنا كان مصحوبا بالخوف وخرجت وكشرت عن أسناني على أحسن نحو فعله الآخرون ، ولم يكن هذا لرغبتى فى تقليدهم فحسب بل لقد أحسست الحافز فى أعماقى لأن أفعل نفس الأشياء التى يفعلونها ووقف شعر رأسى وانتفضت بهياج شديد لايعرف منطقا .

وظل «سن السيف» العجوز بعض الوقت وهو يندفع داخل وخارج الكهفين ثم يندفع داخل وخارج الفجوة التى تفصل بين الكهفين ومراوغته . وفى نفس الوقت بدأنا نحن فى أعلا الجرف العمل كلما ظهر قذفناه بالحجارة واكتفينا فى أول الأمر بإسقاط الحجارة عليه ، ولكن سرعان ما أخذنا نصوبها نحوه بقوة عضلاتنا .

واستمرعى عملنا هذا انتباه «سن السيف» نحونا وزاد غضبه عما كان عليه قبلا. وكف عن مطاردة الرجلين ووثب يمسد الجرف معنا نحونا وهو ينشب مخالبه فى الصخر المتداعى ويزمجر أثناء صعوده وإزاء هذا المنظر المخيف لجأ القوم إلى داخل الكهوف . أعرف هذا لأنى أطلت برأسى ورأيت سطح الجرف خاليا مهجورا إلا من «سن السيف» الذى لم يعد يجد مكانا لأرجله وأخذ يترلق ويسقط . وصحت صيحة التشجيع وعادت القبيلة تغطى سطح الجرف بتصاصيح أعضاؤها وأخذت الحجارة تتساقط أسرع منها قبلا واستبد «بسن السيف» هوش الغضب وأخذ يهاجم الجرف من وقت لآخر ويوصل فى إحدى المرات إلى مداخل الطبقة الأولى من الكهوف قبل أن يسقط ثانية ولكنه عجز عن دخولها ومع كل إندفاع منه إلى أعلى تعمرنا موجة خوف .

وفى أول الأمر كانت موجة الخوف تدفع أغلبنا إلى داخل كهوفهم ولكن بعضنابقى خارج الكهوف مستمرين فى إلقاء الحجارة . ولم يحدث من قبل أن عانى مخلوق له مثل هذه القوة من الإحباط ما عاناه «سن السيف» على هذه الصورة وجرح كبريائه كثيرا أن تسخر منه جماعة

صغيرة رفيقة كهذه الجماعة . ووقف على الأرض وتطلع إلينا وزمجر وهز ذيله وهو يهم بفمه على الحجارة المتساقطة بالقرب منا . وفى ذات مرة ألقيت عليه حجرا . وتطلع فى اللحظة المناسبة إلى فوق فأصاب الحجر طرف أنفه مما جعله يقفز عاليا حتى أصبحت أرجله الأربعة فى الهواء وهو يزار ويموء ألما ودهشة -

وهكذا هزم وعرف هو أنه هزم واستعاد كبريائه ومشى فى وقار مبتعداً عن مطر الأحجار وتوقف وسط المكان المكشوف والتفت إلينا فى حزن وجوع كارها التخلي عن وجبة طعامه وكنا لهما كثيرا يسد جوعه ولكن منالنا كان بعيدا عليه . ودفعنا منظره هذا إلى الضحك فضحكنا جميعا ساخرين مقهقين . والحيوانات تكره السخرية إذ تثير غضبها .

وقد أثارت سخريتنا غضب «سن السيف» فاستدار وعاود مهاجمة الجرف وهذا هو ما أردناه بعد أن أصبح القتال لعبة وأبهنا قذفه بالحجارة .

ولكن هجومه لم يطل إذ سرعان ما استعاد فهمه السليم وفضلا عن ذلك فإن قذفنا أصبحت بارعة فى إصابته وإيلامه ، وأذكر بوضوح منظر إحدى عينيه وقد تورمت وبرز التورم حتى كاد يخلق فتحة العين من إثر إصابته بحجر ، وله فى ذاكرتى صورة حية وهو واقف على حافة الغابة حيث تقهقر نهائيا ، كان ينظر إلينا انفجرت شفثاه الملبويتان حتى كشفت جنور أنيابه الضخمة ووقف شعره واهتز ذيله وزأر لآخر مرة ثم اختفى عن الأنظار بين الأشجار .

ويالها من ثرثرة تلك التى ثارت عندئذ . خرجنا جميعا زرافات من كهوفنا نفحص آثار مخالبه على صخور الجرف المتداعية ونحن نتكلم فى وقت واحد. وكان أحد الذين أسرهما النمر فى الكهف المزوج شابا فيه صفات الطفولة بارزة وقد خرجا من مخبئهما فخورين وأحطنا بهما معجبين بموقفهما . وعندئذ شقت أم الشباب الجموع وهوت عليه فى هياج هائل تلمطه على أذنيه وتجذب شعره وتصرخ فى وجهه كالشيطان .

وكانت امرأة فارعة الطول ممشوقة القوام غزيرة الشعر . وأثار ضربها ابنها ابتهاج القبيلة وأخذنا نضحك ونتماسك حتى لا نسقط على الأرض من فرط الضحك بل أن بعضنا وقع وتدرج على الأرض .

وبالرغم من فترة الخوف التي عشناها فإن القوم كانوا دائما معنيين في الضحك المستمر ، ولقد كان إحساسنا بالمرح إحساسا قويا فإذا استبد بنا المرح لم نمك له ضبطا ولم يكن هناك موقف وسط بل إذا وجد شيء مضحك تشنجنا تقديرا له وكانت أسبب الأشياء وأكثرها بدائية تثير ضحكنا وأستطيع أن أقول لك أننا كنا من كبار الضاحكين .

وأسلوبنا مع «سن السيف» هو نفس أسلوبنا مع جميع الحيوانات التي تغزو القرية واستطعنا الاحتفاظ بدروب هربنا وبأماكن ورودنا الماء مما جعل الحياة غاية في الشقاء للحيوانات التي تنتهك حرمة أرضنا أو تضل سبيلها إلينا .  
وسببنا لأشد الحيوانات المتوحشة ضراوة حيرة شديدة حتى فضلت أن تتخلى لنا عن أماكننا . لم نكن نمائلها في القدرة على القتال ولكننا كنا ملاكرين وجبناء وبفضل المكر والجبن والإفراط في الخوف استطعنا البقاء أحياء في تلك البيئة المعادية لدرجة مخيفة والعالم في بدايته .

وأتصور أن «مسترخى الأذن» يكبرني بعام ولم تكن لديه وسيلة يذكر لى بها شيئا عن ماضيه ولكنى لم أر أما له ومن هذا أعتقد أنه يتيم ، وعلى كل حال فلم يكن للأباء حساب في قبيلتنا إذ كان الزواج حتى ذلك الحين في حالة بدائية وللأقارح طريقة خاصة للنزاع والانفصال ، والإنسان الحديث يفعل نفس الشيء قانونيا عن طريق نظام الطلاق أما نحن فلم يكن لنا قوانين بل كنا نسير وفقا للعادة ، وعادتنا في أمر الزواج بالذات فوضى لا ضابط لها .

وبالرغم من ذلك وكما سيبتين في هذه الرواية فيما بعد فإننا كشفنا عن دلائل براءة على عدم تعدد الزوجات أو تعدد الأزواج مما أضفى قوة على القبائل التي اعتنقت هذا الرأي وجعلتها غاية في القوة، فضلا عن ذلك فقد كان في الوقت الذي ولدت فيه عدة أزواج مخلصين يعيشون فوق الأشجار بالقرب من أمي، والحياة نفسها وقتئذ لم تكن تشجع على تعدد الزوجات وهذا هو السبب من غير شك في أن الأزواج المخلصين كانوا يذهبون بعيدا عن القبيلة، ويعيشون وحدهم ويظنون عدة أعوام معا حتى إذا مات الرجل أو المرأة وأكله حيوان وجد الباقي شريكا لحياته .

\*\*\*

وهناك شيء حيرنى كثيرا خلال الأيام الأولى التي قضيتها بين أهل القبيلة. سادنا خوف لا اسم له ولا عدوى منه . وبدا في أول الأمر مرتبجا بالاتجاه فقد كان القوم يخشون الاتجاه الشمالي الشرقي وعاشوا في خوف مقيم من تلك الناحية يحدقون النظر في تلك الناحية أكثر وفي خوف أكبر مما يفعلون إذا هم نظروا إلى أية ناحية أخرى .

وعندما ذهبت أنا و«مسترخى الأذن» ناحية الشمال الشرقي لتلك الجزر ذا الجنور الشائكة وهو في ذلك الموسم في أحسن حالاته أصابه الخوف بدرجة غير عادية وقتع «مسترخى الأذن» باكل الجزر المتخمر والجزر الكبير الخشن والصغير الدقيق الذي يشبه الخيط ورفض المخاطرة بالتقدم مسافة قصيرة حيث الجزر لم تمتد إليه يد بعد . وعندما أقدمت على هذه المخاطرة عنفنى وتشاجر معى وجعلنى أفهم أن في هذه الناحية خطرا رهيبا ولكن قلة حصيلته من اللغة لم تسمح له بأن يقول لى ما هو ذلك الخطر رهيب .

وحصلت على وجبات غذائية طيبة على هذا النحو بينما كان يعنفنى ويثرثر عيئا . ولم أستطع أن أفهم وابتبعت وظللت منتبها ولكنى لم أستطع أن أرى أى خطر وظللت أحسب دائما المسافة بينى وبين أقرب شجرة وأنا أعرف أنى أستطيع أن أسبق «الأصفر النحاسى» أو «سن السيف» العجوز إلى ذلك المأوى أن ظهر أحدهما فجأة .

وحدث بعد ظهر أحد الأيام أن ثارت ضجة كبرى في القرية فقد أثارت القبيلة فكرة واحدة هي فكرة الخوف وأزبحم القوم على جانب الجرف والجميع يحدقون النظر ويشيرون إلى ناحية الشمال الشرقي ولم أعرف ماذا وراء ذلك . ولكنى شققت طريقي بين الزحام صاعدا الجرف إلى الإقامة في كهفى الصغير العالى دون أن ألتفت ورائى لأرى .

وعندئذ رأيت وراء النهر وبعيدا نحو الشمال الشرقي سر الدخان لأول مرة . كان ذلك أكبر حيوان رأت عيني قط وخطر ببالي أنه حية هائلة منتصبه ترفع رأسها بين الأشجار وهى تتأرجح إلى الوراء وإلى الأمام ومع ذلك فقد بدا لى من سلوك القوم أن الدخان نفسه لم يكن مصدر الخطر وبدا لى أنهم يخشونه على أنه



المكسورة عن الأرجحة ولكن فرع الشجرة لم يكف عن الاهتزاز واستمر جسده يعلو وينخفض مع حفيف الأوراق .

وسمعت صوت تكسر فرع شجرة جاف ونظرت إلى أسفل ورأيت أول من رأيت من أهل النار وكان يزحف خفية على الأرض ويرفع عينيه إلى داخل الشجرة وظننته أول ما ظننته حيوانا ضاريا لأنه كان يحيط وسطه بجلد الدب ويضع على كتفيه قطعة مهلهلة من نفس الجلد . ثم رأيت يديه وساقيه ثم ملامحه بوضوح أكبر . ورأيت كثير الشبه بالنوع الذى انتمى إليه فيما عدا أنه أقل شعرا وأن قدميه أقل مشابهة ليديه من مشابهة أقدامنا لايبدينا . وقد عرفت فيما بعد أنه هو وقومه أقل شعرا منا وإن كنا بنورنا أقل شعرا من أهل الشجرة .

وخطر ببالي على الفور وأنا أنظر إليه أن هذا هو الربع الآتى من الشمال الشرقى الذى كانت للدخان الغامض علاقة به وعلامة له . ومع ذلك فقد أصابتنى الحيرة .. فليس بالتأكيد شيئا يبعث الخوف فى النفس فإن العين الحمراء أو أى رجل من رجالنا الأقوياء أكثر من أن يكون مجرد ند له . فضلا عن ذلك فهو عجوز أصابته الشيخوخة بالضمور وشاب شعر وجهه كما أنه يعرج بإحدى ساقيه عرجا شديدا وليس هناك أدنى شك فى أننا نستطيع أن نسبقه فى الجرى وفى تسلق الشجر ومن المؤكد أنه لن يستطيع اللحاق بنا .

ولكنه يحمل فى يده شيئا ما وهو شئ لم يسبق لى أن رأيته من قبل . هذا الشئ هو قوس وسهم ولم يكن للقوس والسهم وقتئذ أى معنى عندى . ويا لهول ما علمت فيما بعد من أن الموت كامن فى قطعة الخشب المثبتة تلك . ولكن مسترخى الأذن كان يعلم ويبدو بداهة أنه رأى أهل النار من قبل وعرف شيئا عن أساليبهم . ورفع رجل النار ناظريه نحوه ودار حول الشجرة ودار مسترخى الأذن هو الآخر حول الجذع الرئيسى للشجرة فوق ملتقى الأغصان جاعلا الجذع دائما بينه وبين رجل النار .

وعكس رجل النار دورانه فجأة وفوجئ مسترخى الأذن ولكنه أسرع هو الآخر فى عكس دورانه ولم يحصل على وقاية الجذع له إلا بعد أن صوب رجل النار سهمه . ورأيت السهم يقفز علوا ويخطئ مسترخى الأذن ويصيب فرع شجرة ثم

كنا نقفز عشر قفزات أو خمس عشرة قفزة متتالية فلا يهتما أن يسقط أحدنا على الأرض من ارتفاع عشرين أو خمسة وعشرين قدما . وإنى لأخشى فى الواقع أن أقدر المسافات الكبيرة التى كنا نسقطها على الأرض ولما كبرنا وثقل وزننا وجدنا أنه كان واجبا علينا أن نكون أكثر حذرا فى هذا السقوط ولكن أجسامنا فى تلك السن كانت أسلاكاً وزنبركات فنستطيع أن نفعل أى شئ .

وأظهر نو السن المكسورة خفة ملحوظة فى اللعب . وظهرت له أثناء اللعب قدرة لم تكن لى أنا أو مسترخى الأذن على القفز وفى الحقيقة خفنا أن نقلده فى قفزته .

فهو إذ يجرى نحو طرف فرع عال من شجرة معينة يرتفع عن سطح الأرض سبعين قدما وليس بينه وبين سطح الأرض شئ يخفف من تأثير السقطة وتحت ذلك الفرع وعلى عمق حوالى عشرين قدما منه وعلى بعد خمسة عشر قدما من الخط العمودى فرع شجرة أخرى سميك .

وإذ أخذنا نجرى على فرع الشجرة أخذ نو السن المكسورة فى التراجع فى مواجهتنا ولم يكن هذا طبعاً بالذى يعوق تقدمنا ولكن الخطورة كانت عليه هو فى هذا التراجع إذ كان ظهره ناحية القفزة التى سيقوم بها فى اللحظة التى نصل فيها إليه - وأخذ فرع الشجرة فى الاهتزاز كأنه لوح القفز فى حمام سباحة فالتقاء بعيدا إلى الوراء وسقط وفى أثناء سقوطه استدار جانبا وهو فى الهواء حتى يستطيع أن يصعب فى مواجهة فرع الشجرة الأخرى السميك ليسقط عليه فلما سقط عليه فعلا انحنى هذا الفرع إلى تحت من تأثير ثقله وسمعنا صوت تشقق مخيف ولكن الفرع لم ينكسر ورأينا وسط الأوراق وجه ذى السن المكسورة وهو يبتسم لنا فى انتصار .

وفى آخر مرة حاول فيها نو السن المكسورة هذه اللعبة كتت أنا الذى أطاردته . ووصل إلى طرف الفرع وبدأ يتأرجح وأخذت أرحف نحوه وعلى حين فجأة سمعنا صيحة تحذير خافتة صادرة من مسترخى الأذن ونظرت إلى أسفل ورأيت فى النقطة الرئيسية التى تلتقى عندها فروع الشجرة وهو قابع بالقرب من جذع الشجرة وقبعت فورا بدافع غريزى فوق فرع الشجرة الغليظ وتوقف نو السن

يعود ساقطا على الأرض ورقصت علوا وسفلا فوق فرع الشجرة العالى ابتهاجا بهذا . كانت لعبة ! فرجل النار يلقي على مسترخى الأذن شيئا كما فعل نحن أحيانا ونحن نتقاذف الأشياء .

واستمرت اللعبة بعض الوقت ولكن مسترخى الأذن لم يعرض نفسه للإصابة أية مرة أخرى وعندئذ كف رجل النار عن المحاولة . وأخذت أميل بفرع الشجرة الأفقى كثيرا إلى الأمام وأنا أثرثر للرجل . أردت أن ألعب وأن أدع يحاول إصابتي بذلك الشيء . ورأى ولكنه تجاهلنى ووجه انتباهه إلى ذى السن المكسورة وهو يتأرجح قليلا رغما عنه عند طرف فرع الشجرة الذى وقف عليه .

وانطلق السهم الأول علوا . وصاح نو السن المكسورة خوفا وألما فقد أصابه السهم فأصفى هذا طابعا جديدا على الموضوع ولم يعد اللعب يعنينى بل بقيت على فرع الشجرة وأنا أرتعد . وانطلق سهم ثان فثالث وأخطأ كلا السهمين ذا السن المكسورة واهتزت أوراق - الشجر بتأثير السهمين وهما يمران خلالها ثم تقوسا فى الهواء وعادا إلى الأرض .

وجذب رجل الناس قوسه ثانية وغير موضعه ومضى بعيدا بضع خطوات ثم غير موضعه مرة - أخرى وأطلق السهم علوا وصرخ نو السن المكسورة صرخة رهيبة وسقط عن فرع الشجرة ورأيته وهو يسقط ويتقلب فى الهواء أثناء سقوطه ويبدأ لى أنه كله قد استحال أذرا وسيقانا وقد برز السهم فى صدره يظهر ويختفى مع كل دورة يدورها جسده .

وسقط سبعين قدما على الأرض وهو يصرخ بشدة واصطدم بالأرض بصوت مسموع وتكسرت عظامه وانتفض جسده قليلا ثم همدت حركته على الأرض . كان حيا لأنه تحرك وتولى وقبض بيديه وقدميه على الأرض وأنكر أن رجل النار جرى إلى الأمام وييده حجر وأخذ يدي رأس ذى السن المكسورة بالحجر - ولا أنكر ما وقع بعد ذلك .

وكان من عادتى دائما وأنا أرى هذه الأحلام فى طفولتى أن أستيقظ عند هذه المرحلة من الحلم وأنا أصرخ فرزا وكثيرا ما أجد أمى أو مربيتى يجوار فراشى فى لهفة وفزع وتمر بيدها المهذبة خلال شعرى ويقول لى أنها بجانبى ولا شئ يدعو إلى الخوف .

ويبدأ حلمى التالى طبقا للتعاقب دائما بهربى أنا ومسترخى الأذن فى الغابة ووقد ذهب رجل النار ونو السن المكسورة وشجرة الفاجعة . وأنا ومسترخى الأذن نهرب فى دعر وحذر خلال الأشجار وبساقى اليمنى ألم شديد وقد برز من اللحم نصل السهم من ناحية وأخره من الناحية الأخرى . وهو السهم الذى أطلقه رجل النار . وكان السهم يسبب لى ألما شديدا ويعطل حركاتى ويجعل من المستحيل على أن ألحق بمسترخى الأذن .

وأخيرا تخليت عن ملاحقة مسترخى الأذن وبقيت فى مكان آمن عند ملتقى فروع شجرة واستمر مسترخى الأذن فى سيره قدما . وناديت بصوت شاك جدا فتوقف عن السير ونظر إلى الوراء . ثم عاد إلى وتسلق الشجرة إلى ملتقى فروعها وفحص السهم . وحاول أن يجذبه خارجا . ولكن اللحم قاوم رأس السهم الشائكة من ناحية ومن الناحية الأخرى قاوم طرف السهم المريش . وألمت هذا الطرف أيضا إيلاما شديدا محزنا ومنعته من المضى فى المحاولة .

وظلنا قابعين بعض الوقت . مسترخى الأذن فى حال عصبية وفى لهفة للذهاب . ويطل بصفة دائمة وفى خوف هنا وهناك وأنا أبكى بصوت خافت وأتوه . وكان مسترخى الأذن فى حالة دعر ومع ذلك فإنى أعتبر سلوكه وبقائه بجانبى بالرغم من مخاوفه طليعة الثيرة والمزاملة اللتين ساعدتا الإنسان فيما بعد على أن يصبح أقوى الحيوانات .

وحاول مسترخى الأذن مرة أخرى جذب السهم من اللحم وأوقفته غاضبا . وهنا انحنى وأخذ يعض طرف السهم المريش بأسنانه وهو ممسك السهم بيديه فى حزم حتى لا يتسع الجرح وشاركته إمسك السهم . وغالبا ما أتدبر هذا المشهد مشهدنا نحن الاثنين جريون غير كاملى النمو فى طفولة الجنس البشرى أحدهما يسيطر على خوفه ويقمع دافعه الأثانى للهرب ليساند وينتقد الآخر . وعندئذ يظهر أمامى كل ما كان هذا مشيرا به فأرى داميون وبلغياس والغاطسين الذين يقنون الغرقى - وممرضات الصليب الأحمر والشهداء وزعماء الأعمال الضائعة والأب داميون والمسيح نفسه وجميع رجال الأرض العمالقة فى بنائهم والذين قد ترجع قوتهم إلى ظهور مسترخى الأذن وذى السن المكسورة وغيرهم من أهل العالم



البدائي . ولما أتم مسترخی الأذن قضم رأس السهم تيسر جذب مقبض السهم بسهولة  
- وأخذت امضى ولكن مسترخی الأذن هو الذى أوقفنى هذه المرة . كانت ساقى  
تنزف دما غزيرا . ومما لاشك فيه أن بعض العروق الصغيرة تمزقت . وجرى  
مسترخی الأذن إلى طرف فرع شجرة وجمع قبضة من الأوراق الخضراء ودس  
هذه الأوراق فى الجرح فحقت الغرض وعندئذ مضينا معا عائدين إلى مجتمع  
الكهوف .

## الفصل الثامن

وأذكر جيدا أول شتاء مرربى بعد أن غادرت موطنى فأحلامى طويلة عن  
جلوسى فى البرد وأنا أرتعد حتى نجلس أنا ومسترخى الأذن متلاصقين يحيط  
كلانا الآخر بذراعيه وساقيه . وقد حال لون وجهينا وأصبح أزرق واصطكت  
أسناننا واشتد القر بصفة خاصة قبيل الصباح . ونمنا خلال تلك الساعات الأولى  
من الصباح قليلا ونحن متعانقان فى شقاء نترقب شروق الشمس لتبعث الدفء  
فى جسدنا .

وعندما خرجنا وجدنا الجليد يتكسر تحت أقدامنا ورأينا ذات صباح ثلجا على  
صفحة الماء الهادئ فى الغدير حيث كانت الموردة وهناك تساؤل كثير عما يجب  
عمله وكان عظم النخاع العجوز أكبر أعضاء القبيلة سنا ولم يسبق له أن رأى -  
شيئا كهذا من قبل . وأذكر تلك النظرة المزعجة الشاككة تظهر دائما فى أعيننا  
عندما نعجز عن فهم شئ أو عندما نحس وطأة رغبة غامضة لا يمكن التعبير  
عنها) بدأ على العين الحمراء هو الآخر الاكتئاب والشكوى عندما فحص الثلج  
وحقد النظر عبر النهر نحو الشاطئ الشمالى الشرقى كما لو كان يربط على  
نحو ما بين أهل النار وهذا الحدث الأخير .

ولكننا لم نجد الثلج إلا ذلك الصباح فحسب وكان هذا الشتاء أشد شتاء مر  
بنا بردا ولا أذكر أى شتاء آخر بلغ البرد فيه هذا المبلغ وغالبا ما خطر ببالى أن  
ذلك الشتاء البارد طبيعة عدد لا يحصى من فصول شتاء باردة جاءت بعد ذلك مع  
زحف ذلك اللوح من الثلج من الشمال البعيد سفلا على وجه الأرض ولكننا لم نر  
ذلك اللوح من الثلج ولا بد أن تكون عدة أجيال قد تعاقبت قبل أن تهاجر سلالة  
القبيلة جنوبا أو بقيت واستطاعت الملازمة بين نفسها والظروف المتغيرة .

وسارت الحياة عندنا طبقاً للرأى القائل أصب أو أفلت وحياة مرح ولا مبالاة .  
ولم نخطط لإقلياتاً فإذا خططنا لم ننفذ مما خططناه إلا الأقل فنحن لا نأكل إلا  
إذا جعنا ولا نشرب إلا حين نحس العطش ونتحاشى الوحوش المفترسة ونؤوى إلى  
الكهوف ليلاً أما الراحة فهي نوع من اللعب أثناء الحياة وفضلنا شديد تسهل  
تسليتنا وبخيرتنا وفيرة بالحيل والمجون . وليس لنا إلى الجد سبيل إلا إذا أحاق  
الخطر بنا أو اشتد الغضب بنا وفي هذه الحالات ننسى الهزل ونتمسك بالجد .

ولم ننسج على منوال أو نعرف المنطق أو الترابط الفعلى . . ولم يكن لدينا  
غرض راسخ وهنا كان أهل النار يفرقوننا إذ تيسر لهم ما لم يتيسر لنا من هذه  
الأشياء إلا القليل جداً . ومع ذلك فقد كانت لنا قدم صدق في مجال العاطفة  
والثبات عليها وفي هذا تفسير لولاء الزوج لزوجته الواحدة أو الزوجة لزوجها مما  
أشرت إليه من قبل الذي قد يبدو لأول وهلة بأنه حكم عادة ولكن هذا التفسير  
لا يصدق على رغبتى الطويلة الأمد في «السريعة» . ولعمري هذه الثقة والتمسك به  
وربما كان مرجع هذه الرغبة عداوتى للعين الحمراء تلك العداوة التى لا

انقضاء لها . . . . .  
ويحزننى بصفة خاصة ما اتصفنا به من عدم ترابط عقلى وعناء وذلك عندما  
استعيد ذكرى تلك الحياة الماضية وقد وجدت ذات مرة قرعة عسلية مكسورة  
ومقلوبة على جنبها وقد امتلأت بماء المطر وكان الماء عذبا فشربته وأخذت القرعة  
إلى الغدير ومالئها بمزيد من الماء شربته بعضه وصببت الباقي على مسترخى  
الأذن . وسحبت القرعة ولم يخطر ببالى قط أن أسأله ماء وأحملها إلى داخل  
الكهف رغم أنى كنت أحس العطش ليلاً وخاصة بعد أكل البصل الببرى أو  
الكرسون المائى ولا يجرؤ أحد على مغادرة الكهف ليلاً ليشرب .

وحدث مرة أخرى أن وجدت قرعة عسلية جافة ولبنورها فى داخلها خشخشة  
فاصبحت مجرد لعبة وعلى كل حال لم يطل الوقت بعد ذلك حتى أصبح استخدام  
القرع العسلى فى تخزين الماء أمراً شائعاً عند القبيلة ولكنى أنا كنت المخترع .  
ونسب الفضل فى الاختراع لعظم النخاع ومن العدل افتراض أن الضرورة التى  
حتمتها عليه الشيخوخة هى التى خلقت هذا الاختراع .

وعلى أية حال فإن عظم النخاع كان أول من استخدم القرع العسلى بين  
أعضاء القبيلة وكان يحتفظ فى كهفه بقدر من ماء الشرب له ولابنه الأمر الذى كان  
هو مالك الكهف ولكنه سمح لأبيه بأن يشغل مكانه منه وكان يرى عظم النخاع وهو  
يملاً قرعته عند الموردة ويحملها بعناية ويصعد بها الجرف إلى كهفه . والتقليد  
ظاهرة قوية فى القبيلة . وبدأ واحد فثان فثالث فى إحراز قرعه عسلية  
واستخدامها على نفس النحو حتى عم استخدامهما فى تخزين الماء . . . . .

ويتغيب عظم النخاع أحياناً بالمرض ويعجز عن مبارحة الكهف فيقوم الأمر  
مقامه فى ملء القرعة له . وبعد ذلك بقليل جعل الأمر ابنه ذا الشفة الطويلة يقوم  
بهذه المهمة نيابة عنه وبعد ذلك وحتى بعد أن عادت إلى عظم النخاع صحته ظل  
نو الشفة الطويلة فى حمل الماء له وكف الرجال تدريجاً عن حمل الماء إلا فى  
الظروف غير العادية وتركوا أداء هذه المهمة للنساء ولأكبر الأبناء . وكنت أنا  
ومسترخى الأذن مستقلين فلم نحمل الماء إلا لنفسينا وغالباً ما سخرنا من  
الصغار حاملي الماء إذ يستدعون من اللعب لملء القرع العسلى . . . . .

والتقدم عندنا بطى كنا نلعب أثناء الحياة حتى الكبار منا كانوا يلعبون على  
نحو ما فعله نحن الأطفال ولعبنا غير لعب الحيوانات الأخرى وأثناء اللعب نتعلم  
القليل بدافع من فضولنا وشدة تقديرونا . ومن هذه الناحية كان أكبر اختراع  
اخترته القبيلة أثناء إقامتى بين أعضائها هو استخدام القرع العسلى وقد بدأنا  
تخزين الماء فى القرع العسلى تقليدا لعظم النخاع العجوز فحسب . . . . .

ولكن حدث ذات يوم أن ملأت إحدى النساء ولا أعرف من هى - قرعة عسلية  
بالتوت الأسود وحملتها إلى كهفها ولم يمض وقت طويل حتى كانت جميع النساء  
قد حملن التوت والبندق والجنوز فى القرع العسلى . وكلما بدأت فكرة استمرت .  
وقد حدث تطوير آخر فى أنية الحمل بفضل النساء . ومما لاشك فيه أن قرعة أحد  
النساء كانت صغيرة جداً أو لعلها نسيبت قرعتها فقبتت ورقتى شجر كبيرتين معا  
وحاكت أطرافهما بأعواد الاغصان الرقيقة فزادت كمية التوت التى حملتها إلى  
كهفها عما كان يمكن أن تضمها أكبر قرعة . . . . .  
ولم نتجاوز هذا الحد فى وسائل نقل إمداداتنا الغذائية أثناء السنوات التى

عشتها في القبيلة . ولم يخطر ببال أحد قط أن ينسج سلة من أغصان الصفصاف وكان الرجال والنساء أحياناً يحزمون أعواد وفروع نبات السرخس بأعواد الكروم المتينة ويحملونها إلى الكهوف ليناموا عليها وربما قضينا بين عشرة أجيال وعشرين جيلا في الاجتهاد حتى وصلنا إلى نسج السلال . وهناك شئ مؤكد عن هذه الناحية وهو أننا حالما نسجنا السلال كانت الخطوة التالية نسج القماش وما تلا ذلك من صنع الثياب فلما ذهب العري ظهر الحياء . هكذا كانت البواعث في العالم البدائي ولكن لم تكن لنا بواعث كنا نبدأ فحسب ونظل جيلا كاملا لا نتجاوز هذا البدء . ولم تكن لدينا أسلحة أو نار وكنا في بداية الكلام أما اختراع - الكتابة فإنه كامن في المستقبل البعيد بحيث يساورني الخوف حين أفكر فيه . وقد شارفت ذات مرة أن أكتشف اكتشافا عظيما ولكن أين لك كيف كان التطور مصادفة في تلك الأيام أنكر لك أنه لولا نهم مسترخی الأذن لاستطعت استئناس الكلب وهو أمر لم يكن أهل النار الذين يعيشون في الشمال الشرقي قد حققوه بعد ولم تكن لديهم كلاب وقد عرفت هذا من ملاحظاتي ولكن دعني أقول لك أن نهم مسترخی الأذن كان السبب في وقف تطورنا الاجتماعي عدة أجيال . ويقع مستنقع كبير غربي كهوفنا وفي الجنوب سلسلة من التلال الصخرية المنخفضة وقليل ما يرتادها الناس لسببين . أولهما : أنه لم يكن فيهما غذاء من النوع الذي نطعمه . وثانيهما أن هذه التلال حافلة بجحور الوجود المتفرسة . وفي ذات يوم مضينا أنا ومسترخی الأذن ناحية التلال ولولا أننا كنا نشاغب نمرا لما ضلنا الطريق إلى هناك وأرجو الا تضحك فقد كان النمر هو سن السيف العجوز نفسه ولكننا كنا بأمن منه فقد صادفناه في الغابة الصباح المبكر وأخذنا نثرثر له ونحن معتمسان بفروع الأشجار نعرب له عن نفورنا وكراهيتنا . وأخذنا نتنقل من غصن إلى آخر ومن شجرة إلى أخرى ونحن فوقه نشير ضجة هائلة منزيين كل سكان الغابة بمقدم سن السيف العجوز . وأفسدنا عليه صيده على أية حال وأثرنا غضبه وكشر لنا عن أنيابه وهز ذيله وتوقف بين الحين والحين وحق النظر فينا طويلا بهوء كما لو كان يبحث في ذهنه

عن طريقة يتصيدنا بها ولكننا اكتفينا بالضحك وننخسه بأطراف الأغصان وفروع الأشجار .

وكان إغراء النمر رياضة شائعة بين أهل القبيلة وأحيانا يخرج نصف أعضاء القبيلة يتبعون نمرا وأسدا يكون قد غامر بالخروج نهارا وهم فوق فروع الأشجار فكانت هذه هي وسيلتنا في الانتقام لواحد أو أكثر من أعضاء القبيلة أخذ على غرة واستقر في بطن النمر أو الأسد فكان تعذيب الحيوانات المتفرسة وجعلها تشعر باليأس والخزي طريقتنا لإبعادها عن مواطننا وفضلا عن ذلك كان فيها لهو ورياضة كبيرة .

وعلى هذا النحو طاردنا سن السيف مسافة ثلاثة أميال في الغابة وأخيرا وضع ذيله بين ساقيه الخلفيتين وهرب من نخسنا إياه كما يهرب الجرو من الضرب . وبذلنا قصارى جهدنا في اللحاق به ولكن عندما وصلنا إلى طرف الغابة لم يعد يبدو منه غير خيط رفيع في الأفق .

ولا أعرف ما حفرنا إلى هذا إلا أن يكون الفضول ولكن بعد أن لعبنا بعض الوقت مضينا أنا ومسترخی الأذن عبر الأرض العراء إلى حافة التلال الصخرية . ولم نمض بعيدا وربما لم تزد المسافة التي قطعناها خارج الغابة عن مائة ياردة ودرنا حول ناصية صخرية (ونحن حذران كل الحذر لأننا نعرف ماذا يمكن أن يصادفنا) وجدنا ثلاثة جراء تلعب في الشمس .

ولم ترنا تلك الجراء ونحن نرتقبها بعض الوقت كانت جراء كلاب مفترسة . وكان في الجدار الصخري شق أفقي - وواضح أنه العرين الذي كانت أم هذه الجراء قد تركتها فيه وكان يجب أن تبقى فيه لو أنها اطاعت إرادة أمها . ولكن حياة النمو التي دفعتنا أنا ومسترخی الأذن إلى الابتعاد عن الغابة دفعت الجراء خارجا الكهف طيشا ونزقا . وأعرف كيف كانت أمها تعاقبها إذا هي ضبطتها خارجا ولكننا نحن اللذان ضبطناها ونظر إلى ثم اندفعنا نحوها . ولم يكن للجراء ملجأ تجرى إليه سوى العرين فأبعدناها عنه واندفع واحد منها بين ساقى وقبععت وأمسكته وغرس أسنانه الصغيرة الحادة في ذراعي فأسقطته من يدي تحت تأثير المفاجأة والألم . وفي اللحظة التالية أسرع بالدخول إلى العرين .

مسترخى الأذن بل تارجح ثم جاء من أمامه ولم تكن أسنانه مقيدة فكان أول ما فعله هو أن غرس أسنانه فى بطن مسترخى الأذن الناعمة الخالية من أى شىء يحميها وصرخ مسترخى الأذن . وكاد يسقط من فوق الشجرة وأمسك بكلتا يديه غصنا بعنف لإنقاذ نفسه وانحلت عقدة أعواد الكرم التى حول عنقه وسقط الجرو على الأرض وهو مقيد السيقان . وبدأ الضبع وجيته الغذائية .

واشماز مسترخى الأذن وغضب وأخذ يسب الضبع ثم مضى وحده عبر الأشجار ولم أعرف سببا يدفعنى إلى حمل الجرو إلى الكهف أكثر من أنى أردت ذلك وثابرت على عملى . وجعلت هذا العمل أيسر كثيرا بالتوسع فى فكرة مسترخى الأذن . فلم أكتف بتقييد سيقان الجرو بل دفعت قطعة من الخشب بين فكيه واطبقت فمه عليها وقيدت الفم .

وأخيرا أوصلت الجرو إلى الكهف . ويخيل إلى أنى كنت أكثر اصرارا من أفراد القبيلة العاديين وإلا لما نجحت فى هذا . وضحكوا منى عندما رأونى أحمل الجرو إلى كهفى الصغير بأعلى الجرف ولكنى لم أعاب بضحكهم . وكلت جهودى بالنجاح وأصبح لدى الجرو وهو لعبة لا توجد عند أحد من أهل القبيلة . وتعلم بسرعة . وعندما كنت ألاعبه ويعضنى أطمه على أذنه فيظل فترة طويلة لا يعضنى مرة أخرى .

وأحببت كثيرا فقد كان شيئا جديدا ومما يميز أعضاء القبيلة حبهم كل جديد . ولما رأيته يرفض الفاكهة والخضر أخذت أصيد الطيور والأرانب الصغيرة والسناجب له (وكنا ناكل اللحم كما ناكل الخضر كما كنا بارعين فى صيد الحيوانات الصغيرة) وأكل الجرو اللحم وأخذ ينمو ولا بد أن يكون قد قضى فى صحبتي أسبوعا . وفى ذات يوم عدت إلى الكهف ومعى مجموعة من أفراخ الدجاج البرى ورأيت مسترخى الأذن وقد قتل الجرو وبدأ يتكلم فقفزت على مسترخى الأذن فى الكهف الصغير - وتشابكتا بالأياب والأظافر .

وهكذا انتهت بالقتال إحدى المحاولات الأولى لاستئناس الكلب وجذب بعضنا شعر البعض الآخر وخذش كلانا الآخر وعضه وحاول أن يقلع عينه وتجهمنا وتصالحنا وبعدها أكلنا الجرو نينا ؟ نعم . لم تكن قد اكتشفنا النار بعد . وظل تطورنا نحو طهى الحيوانات فى ضمير المستقبل .

وبينما كان مسترخى الأذن يكافح مع الجرو الثانى قطب جبينه نحوى وأبلغنى بعدة أصوات أصدرها من فمه كم أنا أحرق وغبى وأشعرنى بالخلج وحفزنى لإظهار قدرتى وأمسكت الجرو الباقي بذيله وغرس أسنانه فى لحمى مرة أخرى وعندما أمسكته بقفاه وجلسنا أنا ومسترخى الأذن وأمسكتنا الجروين ونظرنا إليهما وضحكنا .

وكبشر الجروان عن أنيابهما وأخذا يعويان وفرغ مسترخى الأذن فجأة إذ خيل إليه أنه سمع شيئا ونظر كلانا إلى الآخر فى خوف إذ تبينا خطورة موقفنا فالشىء الوحيد الذى يحيل الحيوانات إلى مرده هائجة هو ازعاج صغارها والجروان اللذان يثيران كل هذه الضجة ينتميان إلى الكلاب المفترسة وكنا على علم بها ورأيناها تجرى قطعانا وهى مصدر رعب للحيوانات أكلة العشب وراقبناها وهى تطارد قطعان الماشية والثيران وتجر العجول والماشية الهرمة والمریضة وقد حدث أن طاردتنا قطعان الكلاب المفترسة أكثر من مرة ، ورأيت ذات مرة امرأة من القبيلة وهذه الكلاب تطاردها ثم وهى تمسكها فى الوقت الذى بلغت فيه ملجأها فى الغابة ولو لم يجهدا الجرى لارتقت الشجرة حالا وحاولت التسلق ثم انزلت وسقطت فقضت الكلاب عليها .

ولم ننظر كلينا إلى الآخر بل جرينا نحو الغابة ونحن ممسكان بصيدنا حتى إذا بلغنا مأمنا على شجرة طويلة أمسكتنا الجروين وضحكنا مرة أخرى . ثم بدأت أشق عمل حاولت القيام به . مضينا حاملين الجروين نحو كهفنا وبدا من استخدام أيدينا فى التسلق كانت أيدينا معظم الوقت مشغولة بإمسك أسيرينا وهما يتلويان وحاولنا أن ننزل إلى الأرض ولكننا رأينا ضعبا شقيا يتبعنا تحت الشجرة وكان ضعبا حكما .

وخطرت لمسترخى الأذن فكرة . تذكر كيف كان يحزم حزما من أوراق الشجر ويحملها إلى البيت لتكون فراشا . فقطع بعض أعواد الكرم الصلبة وقيد سيقان الجرو ثم أحاط عنقه بقطعة أخرى من هذه الأعواد وعلق الجرو وراء ظهره . وبهذا خلى يديه وقدميه للتسلق وابتهج ولم ينتظران أتم تقييد سيقان جروى بل مضى فى طريقه . ومع ذلك كانت هناك صعوبة فإن الجرو لم يبق متديلا وراء ظهره



من اللعب طول النهار وتخفت أصواتنا حتى صغار الأطفال الذين لا يزال بهم جشع للمرح واللعب يلعبون هنا فى كهوفهم - وقد هدأت الريح الآتية من البحر وطالت الظلال مع غروب - الشمس وعندئذ وعلى حين فجأة تاتى من كهف العين الحمراء صرخة ضارية وصوت لكلمات أنه يضرب زوجته .

وخيم علينا صوت الخوف فى أول الأمر ولكن مع استمرار الضرب والصراخ تنفجر مثرثرين فى جنون ونحن غاضبيون غضب الذين لا حول لهم ولا قوة . وواضح أن الرجال يستنكرون أعمال العين الحمراء ولكنهم أشد ما يكونون خوفا منه ويتوقف الضرب وتذبذب التوهجات الخافتة بينما نثرثر نحن فيما بيننا ويترحف الغسق الحزين علينا . لنبارحنا وقت ما لم نعمل رأيه هناك نحن نلجأ إلى ونحن الذين نرى فى معظم الأحداث نكات لا نضحك أبدا أثناء ضرب العين الحمراء زوجته لأننا نعرف جيدا ما سيهن . وكثيرا ما حدث أن طالعنا الصبح فإذا عند سفع الجرف جثة آخر زوجة له . إذ ألقى بها بعد موتها من مدخل الكهف . ولم يعن العين الحمراء قط بغير موتها بل هو يكل إلى رجال القبيلة أمر رفع تلك الجثث إذ أنهم لو تركوها للوث مكان إقامتهم وكانوا يلقون بها عادة فى النهر وراء آخر مورده .

ولم يكف العين الحمراء بقتل زوجاته بل كان يقتل فى سبيل الحصول على هؤلاء الزوجات فهو عندما يريد زوجة جديدة ويقع اختياره على زوجة رجل آخر يقتل ذلك الرجل على الفور - ولقد رأيت بنفسى حادثى قتل من هذا اللون والقبيلة كلها تعرف ذلك ولكنها لا تستطيع له دفعا إذ لم تكن قد اخترعنا بعد نظام حكومة داخل القبيلة . وكل ما هنالك أنه كانت لنا عادات فإذا انتهكها شقى تعس أنزلنا عليه غضبنا ومن ذلك مثلا ذلك الذى يلوث المورده فإن كل من يراه يفعل ذلك يهاجمه على الفور . والذى ينذر القبيلة بخطر توهمه يناله من أيدينا ضرب عنيف أما العين الحمراء فهويبتئك كل عاداتنا ولكن خوفاً منه شديد إلى حد يعجزنا عن القيام بالعمل الجماعى الضرورى لمعاقبته .

وفى أثناء الشتاء الساسس فى الكهف الذى اكتشفناه أنا ومسترخى الأذن تبينت أننا كبرنا حقا ومنذ البداية كان دخولنا الكهف يضطربنا إلى اعتصار

جسدنا حتى نستطيع المرور من مدخله الضيق . ولضيق مدخل الكهف ميزته على كل حال فهو يمنع الكبار من انتزاع كهفنا منا وهو كهف تتطلع إليه الأنظار بسبب وجوده فى أعلى الجرف وهو أكثر الكهوف أمنا كما أنه فى الشتاء أصغرها مساحة وأكثرها دفئا .

ولكى أبين لك مرحلة النمو العقلى للقبيلة انذكر لك أنه من أهون الأمور على البعض أن يطربونا من الكهف وأن يوسعوا مدخله . ولم أفكر أنا ومسترخى الأذن فى هذا الاحتمال حتى اضطررنا لازدياد حجمنا إلى توسيع المدخل . وقد حدث هذا أثناء فصل الصيف إذ زادت بدانتنا بسبب تحسن الكلا وعملنا فى توسيع المدخل على فترات كلما خطر ذلك ببالننا .

وبدأنا بحفر الصخر الهش بأصابعنا حتى أمثلنا أظافرنا وخطرت ببالي مصادفة فكرة استخدام قطعة من الخشب فى الصخر . ونجح هذا العمل ولكنه سبب لنا مشكلة محزنة إذ ألقى ذات صباح كومة من الشظايا المتخلفة عن الحفر من مدخل الكهف وفى اللحظة التالية جاءت من تحتنا صيحة غضب ولم تكن بحاجة إلى النظر فقد كنا نعرف الصوت جيدا إذ كان الركام قد وقع على العين الحمراء .

وقبعنا داخل الكهف فى نعر . وبعد دقيقة واحدة رأيناه عند مدخل كهفنا ينظر إلينا بعينيه اللمتهبتين وهو هائج كالمارد ولكن كبر حجمه حال دون وصوله إلينا وعلى حين فجأ مضى عنا على نحو آثار شكوكنا . وعلى ضوء ما نعرف من طبيعة أعضاء القبيلة قررنا البقاء حيث نحن حتى ينتهى غضبه . وزحفت إلى المدخل ونظرت إلى تحت ورائته وهو يبدأ الصعود إلينا من جديد حاملا بإحدى يديه عصا طويلة وقبل أن أستطيع إدراك ما يعتزمه عاد إلى المدخل وأخذ يطعننا بعصاه فى وحشية طعنات هائلة من الممكن أن تبقر بطنينا لولا انكماشنا بجوار الجدران الجانبية حيث أصبحنا بعيدا عن متناول عصاه . ومع ذلك فقد نالنا بعضاه من وقت لآخر بطعنات قاسية تنزع الجلد والشعر كلما صرخنا من فرط الألم زأر زئير الرضى وزاد من طعننا .

وبدأت أغضب فى مزاج خاص وشجاعة كبيرة أيضا ولو أن هذا فى أعليه

جسم الطفل الصغير في الهواء وسقط على الجرف مرتطما فتحطم وجرت أمه إليه ورفعته بين ذراعيها وانحنت عليه تبكي .

ومضى العين الحمراء للالتقاط العصا . وقادت عظم النخاع العجوز قدماه إلى طريقه وامتدت يد العين الحمراء الكبيرة وقبضت على ظاهر عنق الرجل العجوز - وتطلعت منتظرا أن أرى عنق الرجل وقد انكسر . وخدر جسمه وهو يستسلم لصيره وتردد العين الحمراء لحظة وارتعد عظم النخاع العجوز بشدة وأحنى رأسه وغطى وجهه بذراعيه المشابكتين وعندئذ ضربه العين الحمراء وألقى به على الأرض فانكأ على وجهه ولم يكافح عظم النخاع العجوز وظل راقدًا يبكي مخافة الموت ورأيت الأمر في الأرض العراء يضرب صدره بيده وينتفش شعره ولكنه خائف من التقدم نحو أبيه . وهنا ترك العين الحمراء الرجل العجوز لشأنه بدافع نزوة طارئة من نزواته ومضى حيث استعاد عصاه .

وعاد إلى الجرف وتسلقه وعاد مسترخي الأذن من موقعه بجوارى حيث كان يرتعد فرقا وهو يطل من مدخل الكهف إلى الداخل . وبدأ واضحا أن العين الحمراء يعترزم قتلنا وأصابني التهور والغضب ولكني التزمت الهدوء وأخذت أجرى راثحا غاديا بين طلف الجرف المتجاورة وجمعت كومة من الاحجار عند مدخل الكهف وأصبح العين الحمراء الآن على عمق عدة ياردات منى وأن أخفاه عن ناظرى نتوء في الجرف وظهر رأسه وهو يتسلق فقدفته بقطعة حجر ولكنها لم تصبه بل أصابت سطح الجرف وتحطمت وأثارت ترابًا ملأت الذرات المنبعثة منه عيني فاخفتى عن ناظرى .

وانبعثت من القبيلة الضحكات والثرثرات وهي ترتقب ما يجرى . فقد ظهر أخيرا من بين أبناء القبيلة من يستطيع أن يواجه العين الحمراء . إذ ارتفع في الهواء صدى الموافقة والاستحسان كشر العين الحمراء لهم عن أنيابه فجلجأوا إلى الصمت فوراً - وتشجع بهذا الدليل على قوته وبرز برأسه وحاول تخويفي بتقطيب جبيني والتكشير عن أنيابه وهو يقرض بأسنانه وتقطيب جبيني رهيب وهو يجذب فروة رأسه فوق حاجبيه ويوقف شعر قمة رأسه حتى تبدو كل شعرة منها واقفة على حدة بارزة إلى الأمام.

شجاعة الفأز المحاصر وأمسكت العصا بيدي ولكن قوته الهائلة مكنته من أن يجذبني حتى مدخل الكهف ومد ذراعه الطويلة نحوى ومزقت أظفاره جلدي وأنا أقفز عائدا إلى مكاني مبتعدا عن قبضته وأصبحت في مأمن نسبي وأنا ملتصق بجدار الكهف .

وعاد يطعننا بعصاه من جديد وتألتي بضرربة مؤلة هوت على كفتي . ولم يفعل مسترخي الأذن أكثر من أن ارتعد خوفا وصرخ عند إصابته وبحثت عن عصا لأرد الطعنات ولم أجد غير طرف غصن طوله قدم وسمكه بوضعة القيت به على العين الحمراء فلم يلحق به ضرر ومع ذلك فقد عوى وزاد هياجه لجرأتي على الرد عليه وأخذ يطعن في هياج ثم رأيت شظية حجر فالتقيتها عليه وأصابت صدره . وأكسبني هذا العمل جراحة وفضلا عن ذلك فقد أصبحت مثله غضبا وزال عني كل خوف وانتزعت شظية من جدار الكهف ترزن رطلين أو ثلاثة أطرال وقذفتها في وجه العين الحمراء بكل ما أوتيت من قوة وكادت تقضى عليه إذ ترنح إلى الوراء وسقطت عصاه من يده وكاد يسقط عن الجرف .

وأصبح منظره وحشيا والدم يغطي وجهه وقد كشر عن أنيابه وكأنه خنزير برى ومسح الدم عن عينيته ورأيتى وزأر في هياج . ولما لم تعد لديه عصا فاته أخذ ينتزع الشظايا من الصخر المهشم ويلقي بها على . وأمدني عمله هذا بالذخيرة فرددت إليه ما قذفه على وعلى نحو أفضل مما كان هو يفعل لأنه كان هدفا طيبا بينما هو لا يرى منى إلا لمحات وأنا ملتصق بالجدار الجانبي .

وعلى حين فجأة اخفتى مرة أخرى ورأيتى من مدخل الكهف وهو يهبط الجرف وكان جميع أعضاء القبيلة قد تجمعوا في الخارج وأخذوا ينظرون في خوف لا ينطقون حرفا وفي أثناء هبوطه الجرف أسرع أشد الرجال خوفا إلى داخل كهوفهم ورأيت عظم النخاع العجوز وهو يترنح ماضيا بأقصى ما لديه من سرعة وقفز العين الحمراء عن الجرف إلى السفح وقطع في هذه القفزة عشرين قدما طائرا في الهواء وهبط بجوار أم كانت قد بدأت صعود الجرف وصاحت خوفا وأقلت يدا طفلها ذى العامين والمتعلق بها وتدحرج عند قدمي العين الحمراء . ومد هو يديه ومدت الأم يديها للأمسك بالطفل ولكنه سبقها إليه في اللحظة التالية دار

وأخافني منظره ولكني سيطرت على خوفي وهددته بقطعة حجر في يدي ومع ذلك حاول أن يتقدم ففقدته بقطعة الحجر ولم تصبه وقذفته بقطعة أخرى فأصابت عنقه وانزلق إلى الوراء واخفتني عن ناظري ولكني رأيته وهو يخفتي ممسكا الجرف بيد وعلقه باليد الأخرى وسقطت العصا على الأرض بصوت مسموع . ولم أعد مستطيعا رؤيته ولكني استطعت أن أسمعوه وهو يكاد يخفتك ويسعل وله شخير وظل الجمهور ملتزما صمت القبور . وقبعت على حافة الكهف وانتظرت وكف عن السعال والشخير وسمعت من وقت لآخر وهو يخلى حنجرته من الحشرجة . وبعد قليل عاد يهبط الجرف بهدوء ويتوقف من لحظة لأخرى ويمط عنقه أو يتحسس يديه .

وإذ رأته القبيلة يهبط الجرف تسابق أعضاؤها إلى داخل الغابة وهم يتصايحون صياحا شديدا وتبعهم عظم النخاع العجوز وهو بصرخ ولم يحفل العين الحمراء بهربهم ولما وصل إلى الأرض دار حول قاعدة الجرف وصعد إلى كهفه دون أن يلتفت حوله قط .

وحددت النظر في مسترخى الأذن كما حدق هو النظر في . وفهم كلانا الآخر وأخذنا على الفور نضع الجرف بحذر وهدوء حتى بلغنا القمة تلفتنا وراعا ورأينا المساكن كلها مهجورة وظل العين الحمراء في كهفه بينما اختفت القبيلة في أعماق الغابة .

واستدرنا وجرينا واندفعنا عبر المكان العراء وعبرنا المنحدرات دون أن نعبأ باحتمال وجود ثعابين بين العشب حتى بلغنا الغابة . وضعنا الأشجار ومضينا قفزا فوقها وتأرجحنا من فرع شجرة لآخر حتى قطعنا أميالا . وعندئذ توقفنا عند ملتقى فروع شجرة وهو ملتقى آمن . ونظر كلانا إلى الآخر وأخذنا نضحك وتشابكنا أنزعا وسيقاننا ونظر كلانا للآخر وأخذنا نضحك وأعيننا تطفر دموعا وجيوبنا تؤلنا بسبب الضحك ومضينا نضحك ونضحك ونضحك .

## الفصل العاشر

وبعد أن انتهينا من الضحك كففنا عن الجري وتناولنا طعام افطارنا في مستنقع التوت الأزرق وهو نفس المستنقع الذي ذهبت إليه في أول رحلة لي في العالم منذ سنوات في صحبة أمي . ولم أر أمي منذ ذلك الوقت إذ كان يحدث أثناء زيارتها القبيلة في الكهوف أن أكون أنا في الغابة . ولحلت الثرثار مرة أو مرتين في الأرض العراء واستمتعت بلحظات قضيتها في السخرية منه بلامح وجهي وفي إغضابه وأنا عند مدخل كهفي . وفيما عدا ذلك تركت أسرتي وشأنها ولم أهتم بها إذ نجحت في تسيير دفة حياتي .

وبعد أن ملأنا بطنينا بالتوت وتناولنا ما وجدناه في عش طائر السماء من بيض كان على وشك الفقس كلون من الحلوى . تجولنا أنا ومسترخى الأذن في حذر داخل الغابة ناحية النهر . هنا حيث توجد الشجرة التي فيها بيتي القديم والتي طردني الثرثار منها لا يزال البيت أهلا بسكانه الذين زادوا عددا وهناك طفل صغير متعلق بأمي وهناك فتاة شبيهة نامية وهي تنظر إلينا في حذر من فوق أحد فروع الشجرة الدنيا وهي بداهة أختي أو أختي غير الشقيقة .

وعرفتني أمي ولكنها أنذرتني حين بدأت أتسلق الشجرة وأشارت إلى بالابتعاد وتقهقر مسترخى الأذن إذ كان أكثر مني حذرا ولم أستطع إقناعه بالعودة . وقد نزلت أختي فيما بعد إلى الأرض وهناك بين الأشجار المجاورة لعينا نحن الثلاثة ولهونا . ثم حلت المتاعب . كانت أختي ومع ذلك فلم يمتعها هذا من أن تسمى معاملتى لأنها ورثت كل ما في الثرثار من شر وعلى حين غفلة انقلبت على وهاجت هياجا شديدا وخدشتني ومزقت شعري وأنفذت أسنانها الصغيرة الحادة في



ذراعى وفقدت صبرى ولم ألحق بها أية إصابة ولكنى من غير شك لطعمتها لطفة شديدة لم يكن لها بمثلهما عهد من قبل .

صاحت وصرخت وسمعها الثرثار الذى كان بعيداً طول يومه لتوه وأسرع إليها وانفدعت أمس كذلك ولكنه سبقها. ولم تنتظر أنا ومسترخى الأذن مقدمه بل هربنا بعيداً وطاردنا الثرثار خلال الأشجار وهو يريد القضاء على حياتنا.

وانتهت المطاردة وضحكتنا أنا ومسترخى الأذن كفايتنا ثم اكتشفنا أن الليل يوشك أن يخيم. هنا الليل بكل ما فيه من أهوال يوشك أن يهبط علينا وما كنا بمستطيعين بحث مسألة العودة إلى الكهوف فالعين الحمراء يجعل ذلك مستحيلاً ولجاناً إلى شجرة منعزلة عن بقية الأشجار وقضينا الليلة على ملتقى فروعها العالى وكانت ليلة تعسة إذ ظلت السماء تمطر بغزارة طوال الساعات القليلة الأولى ثم اشتد البرد علينا وهبت ريح قاسية البرد علينا وابتلت أجسامنا وارتعدت أطرافنا واصططكت، أسناننا واحتضننا كلانا الآخر وافتقدنا الكهف الجاف المريح الذى سرعان ما يسرى فيه الدفء بحرارة جسمينا.

وطلع الصباح علينا فإذا نحن شقيان صمما على عدم قضاء مثل هذه الليلة مرة أخرى وتذكرنا كيف يدبر الكبار مأوى لهم. وبدأننا بنى مأوى مماثلاً للذى بينونه وصنعنا إطار عش بدائى وعلى ملتقى فروع شجرة عالية جنباً بعدة أعمدة للسقف ثم أشرقت الشمس، وتحت تأثيرها المحمود العاقبة تسينا متاعب الليل ومضينا نبحث عن طعام لافطارنا.

ولكى أبين لك عدم تتابع الحياة فى تلك الأيام أقول لك أننا مضينا نلعب. ولابد أن نكون قد قضينا شهراً ونحن نعمل بصورة متقطعة فى بناء بيتنا على الشجرة حتى إذا تم البناء لم نستخدمه مرة أخرى.

ولكنى بهذا أسبق قصتى، عندما مضينا نلعب بعد تناول طعام افطارنا فى يومنا الثانى بعد مغادرتنا الكهوف قادنى مسترخى الأذن ونحن نلعب لعبة المطاردة بين الأشجار نحو النهر. حيث تدخله بركة كبيرة أتية من مستنقع التوت الأزرق ومصب هذه البركة عريض وليس فى البركة نفسها تيار مائى وتتوسط هذا الماء الراكب عند المصب كتلة متشابكة من جذوع الأشجار نالت السيول من بعضها

وجفت فصول الصيف الطويلة بعضها الآخر وأصابته بالضمور وأسقطت عنه فروعه. كانت الكتلة طافية عالية فوق الماء تهتز علواً وسفلاً وعندما خططنا عليها انقلبت بنا.

وهنا وهناك بين الجذوع شقوق تكشف عن مجموعات من الأسماك الصغيرة فى الماء. تحتها وهى تندفع إلى الامام وإلى الوراء وأصبحنا أنا ومسترخى الأذن على الفور صيادى سمك رقدنا منبطحين على الكتل الخشبية والترزنا السكون وانتظرنا حتى اقترب السمك ثم مددنا أيدينا بسرعة وأكلنا ما صدناه فى نفس المكان وهو يتلوى بين أيدينا ولم تبرحه رطوبته بعد ولم نلاحظ نقص الملح.

وأصبح مصب البركة ملعبنا المفضل وظللنا نقضى عدة ساعات كل يوم نصيد السمك ونلعب على الكتل الخشبية وهنا وفى ذات يوم تعلمنا دروسنا الأولى فى الملاحة إذ طفت كتلة الخشب التى كان مسترخى الأذن راقداً عليها وهو متكرر على جنبه مستغرق فى نومه وهبت ريح خفيفة ومضت كتلة الخشب تلك بعيداً عن الشاطئ. ولاحظت المازق الحرج الذى صار إليه ولكن المسافة بيننا أصبحت من الاتساع بحيث لا يستطيع قفزها.

وبدا الأمر لى فى أوله مثيراً للمرح فحسب ولكن عندما تحرك فى داخلى أحد دوافع الخوف التى كانت شائعة فى العصر الذى عشنا فيه وهو عصر عدم الأمان أدركت فجأة ان ابتعاد مسترخى الأذن عنى وهو فوق ذلك العنصر الغريب على بعد بضعة أقدام فيه خطورة على وصحت فيه بصوت عال صيحة تحذير فاستيقظ وخاف ونقل ثقله بتهور فوق قطعة الخشب فانقلبت وغطس تحتها. وحاول ثلاث مرات أن يعلوها ولكنها مع كل محاولة من هذه المحاولات كانت تنقلب وتجعله يغرس تحتها وأخيراً نجح فى محاولته وقبع عليها وأخذ يثرثر خوفاً.

ولم استطع أن أفعل شيئاً ولا هو استطاع أن يفعل شيئاً إذ لم تكن تعرف شيئاً وقتئذ عن السباحة لأننا كنا بين مرحلتين مرحلة الأشكال الدنيا للحياة التى لغريزة السباحة أهمية فيها ومرحلة البشرية التى تستخدم السباحة فيها وسيلة لحل مشكلة ما. وأخذت أجوب الشاطئ راثعاً غادياً وأنا فى كرب شديد محاولاً الاقترب منه ما استطعت وهو فى رحلته اللارادية يبكي ويصيح حتى آثار عجبى كيف لم يجلب علينا بكاؤه وصياحه كل حيوان مفترس.

شديداً وظلت أول الأمر ساكنة تماماً ولكنها عندما تبينت أن أمرها قد انكشف هبطت على الأرض واندفعت مسرعة بعيداً وأخذنا نلمحها أحياناً من يوم لآخر وأخذنا نحى لنبحث عنها فى انقلابنا بين شجرتنا ومصب البركة. وفى ذات يوم لم تهرب منا بل انتظرت وأخذت تصدر أصوات سلام خافتة ومع ذلك لم نستطع الاقتراب منها. إذ كلما بدا أننا دوننا كثيراً منها اندفعت تجرى مبتعدة عنا على حين فجأة حتى إذا بلغت مكاناً آمناً أخذت تصدر أصوات السلام الخافتة مرة أخرى واستمر هذا بضعة أيام ولستغرقنا وقتاً طويلاً حتى تعرفنا بها وشاركنا لعينا أحياناً.

وأحببتها منذ النظرة الأولى فمظهرها يرضى العين وهى معتدلة المزاج وعيناها أكثر ما رأيت من العيون غنوية وهى فى هذا تختلف تماماً عن بقية فتيات ونساء القبيلة اللواتي يولدن مسترجلات وما كانت تصيح صيحات غاضبة قط بل كانت تبدو وكأنها طبيعتها الهرب من المتابع لا البقاء والقتال.

ويبدو الاعتدال الذي نكرته منبعثاً من كيانها كله إذ كان مظهر جسدها كمظهر وجهها سبب هذا الاعتدال عيناها أكثر عيون بنات جنسها اتساعاً وليستا غائرتين فى تجريفهما بينما أهدابها أطول وأكثر انتظاماً من أهداب الفتيات الأخريات وليس فى أنفها غلظة كما انه غير مربع بل لها قصبه أنف وفتحاته إلى تحت. وأنيابها غير طويلة وليست شفقتها العليا طويلة متدلّية إلى تحت أو شفقتها السفلى بارزة كشأن غيرها من الفتيات وشعرها غير غزير إلا فى ظاهر الذراعين والساقين وعلى الكتفين وهى ضامرة الفخذين وليس فى بطنها ساقبها انتشاء أو اعوجاج.

وكثيراً ما أتساءل وأنا أسترجع ذكراها الآن فى القرن العشرين عن طريق أحلامي فيخطر ببالي احتمال أنها تنتمي إلى أهل النار. وربما كان أبوها أو أمها منحدره من تلك السلالة الأكثر رقىاً. وأن لم تكن هذه الأشياء شائعة إلا انها مع ذلك كانت تحدث ولقد رأيت برهان ذلك بعيني إلى حد أن بعض أعضاء القبيلة كانوا يخرجون عليها ويذهبون للاقامة مع أهل الشجر.

ولكن هذا لا يجرى دائماً. وكانت السريعة تختلف اختلافاً جوهرياً عن أية أنثى

ومرت الساعات وارتفعت الشمس فوق سمت السماء ثم بدأت تميل نحو الغرب وهدأت الريح الخفيفة وتركت مسترخى الأذن على كتله الخشبية طافياً على بعد مائة قدم وهنا وعلى نحو ما اكتشف مسترخى الأذن اكتشافاً كبيراً ولا أدري كيف تم له ذلك. أخذ يجدف بيديه. وكان تقدمه فى أول الأمر بطيئاً غير منتظم ثم استقام له الأمر وأخذ يجد فى التجديف ويقترب منى أكثر فأكثر. ولم أستطع أن أفهم ما أرى وجلست أرقب وأنظر حتى بلغ الشاطئ.

ولكنه تعلم شيئاً لم أتعلمه أنا. وبعد الظهر انطلق بالكتلة الخشبية بعيداً عن الشاطئ متعمداً وبعد ذلك أقنعنى بالانضمام إليه وتعلمت أنا الآخر لعبة التجديف ولم نستطع الابتعاد عن بركة الماء طول الأيام العديدة التالية إذ استغرقنا لعبتنا الجديدة إلى حد أهملنا معه طعامنا بل أننا أخذنا نأوى إلى شجرة قريبة ليلاً ونسبنا العين الحمراء.

وأخذنا نجرب كتلاً خشبية جديدة كل يوم وتعلمنا أنه كلما صغر حجم الكتلة الخشبية زادت قدرتنا على جعلها تسيّر بسرعة أكبر. وتعلمنا أيضاً أنه كلما صغر حجم الكتلة الخشبية زاد احتمال انقلابها ووقوعنا فى الماء. وهناك شىء آخر تعلمناه خاصاً بالكتل الخشبية الصغيرة ففى ذات يوم جذفنا كتلتينا الخشبيتين كلانا بمحاذاة الآخر وعندئذ اكتشفنا محض الصدفة أنه عندما يمسك كلانا كتلة الآخر الخشبية بيده وقدمه استقرت ولم تنقلب وهكذا كنا نرقد كلانا على كتله الخشبية فى هذا الوضع وتبقى يدانا وقدمانا الخارجية حرة نجدف بها ثم جاء اكتشافنا الأخير وهو أن هذا الترتيب ساعدنا فى استخدام كتل خشبية أصغر حجماً وبها حققنا سرعة أكبر وهنا انتهت اكتشافاتنا. وبذلك اخترعنا أول طوف يدائى ولم يكن لنا من العقل ما يسمح لنا بمعرفة ذلك. ولم يخطر ببالنا قط أن نربط الكتل الخشبية بأعواد الكروم المتينة أو الجنور الطويلة بل اكتفينا بإسماك الكلتين بأيدينا وأقدامنا.

ولم نجد «السريعة» إلا بعد أن أشبعنا حمانسا الأول للملاحة وبدأنا نعود إلى مأوانا على الشجرة لننام ليلاً. وقد رأيتها أول ما رأيتها وهى تجمع ثمار البلوط الصغيرة من فوق فروع شجرة بلوط كبيرة بالقرب من شجرتنا. وخافت خوفاً

فى القبيلة وشعرت بميل إليها منذ أول نظرة وقد اجتذبتنى إليها باعتدالها ورقتها. لم تكن عنيفة ابداً ولم تقا تل ابداً بل كانت تهرب دائماً وننوه هنا بأهمية تسميتها بهذا الاسم فهى أكثر منى أنا ومسترخى الأذن إجابة لتسلق الأشجار وعندما تلعب لعبة المطاردة لا تقدر على اللحاق بها ابداً إلا مصادفة بينما تستطيع هى إمساكنا متى أرادت ذلك. كانت سريعة بدرجة ملحوظة فى جميع حركاتها كما كانت عبقرية فى الحكم على المسافات بدرجة لا تتساوىها إلا جرأتها. وبينما هى شديدة الخوف فى جميع النواحي الأخرى فهى لا تعرف الخوف فى تسلق الشجر والجرى بين الأشجار أما أنا ومسترخى الأذن فأنا نرتبك وتتقل حركتنا ويشند جبنتا.

وكانت يتيمة فلم نرها مع أحد ولم يكن هناك سبيل نعرف به كم عاشت وحيدة فى العالم. ولابد أنها تعلمت مبكرة فى طفولتها التى لم يكن لها فيها معين أن السلامة فى الهرب كما كانت غاية فى الحكمة والفتنة. وأصبحنا أنا ومسترخى الأذن نجد فى محاولة اكتشاف موطنها لعبة لنا. إذ من المؤكد أن لها ملوى فى شجرة فى مكان ما وليس هذا المكان بعيداً ولكننا لم نستطع العثور على موطنها رغم كل المحاولات التى بذلناها. وكانت راغبة فى مشاركتنا فى اللعب نهاراً ولكنها حرصت أبلغ الحرص على إبقاء مقر إقامتها سراً.

## الفصل الحادى عشر

ويجب أن نذكر أن الوصف الذى أتيت عليه «السريعة» ليس الوصف الذى كان من الممكن أن يقوله نو السن الكبيرة وهو ذاتى الأخرى فى أحلامى وسلفى قبل التاريخ ولكنى عن طريق أحلامى أنظر أنا الرجل الحديث من خلال عيني السن الكبيرة وأرى.

وهكذا شأتى وأنا أسرد أحداث ذلك الوقت المعن فى القدم. وهناك ازواج فى انطباعاتى بصورة مربكة جداً لقرائى ولهذا ساكتفى بالوقوف هنا وهناك لتوضيح هذا الازواج وهذا الخلط المحير فى الشخصية. انه أنا الرجل العصرى الذى يتنكر عبر القرون ويزن ويحلل العواطف والنوافع عند ذى السن الكبيرة ذاتى الأخرى ولم يكن يشغلنى أن يزن وأن يحلل. كان البساطة نفسها يحيا الأحداث فحسب بون أن يتأمل لماذا يحياها على النحو الخاص به ذلك النحو الذى غالباً ما خرج على الانتظام.

ولما كبرت ذاتى الحقيقية ازددت أكثر فأكثر فى مادة أحلامى وقد يحلم المرء وبينما هو فى وسط أحلامه يدرك أنه يحلم وإن كان الحلم شيئاً أدخل على نفسه الشعور بالراحة بفكرة أنه مجرد حلم. وهذه تجربة عامة مشتركة بيننا. وهكذا غالباً ما أدخل أنا الرجل الحديث فى حلمه وفيما يعقب ذلك من ازواج غريب فى الشخصية فأصبح مثلاً ومتفجعاً فى وقت واحد. وغالباً ما أضطرب أنا الرجل الحديث وأنزعج لغيبائى أنا البديئى ذلك الغياب الهائل الشامل وحماقتى ولا منطقتى وفضولى.

وهناك شىء آخر قبل أن أترك هذا التناقض. هل حلمت قط أنك كنت تحلم؟

واختفت وأذكر أنى بذلت ذات مرة جهداً قوياً لاقناعها ولكنها ألفت إلى الوراء نظرات قلق وتقهقرت ثم نادتنى من فوق شجرة. وهكذا لم أعد أصحب مسترخى الأذن عند زيارته أصدقاءه الجدد وكنت أنا والسريعة رفيقين طبيين ولكنى لم أستطع معرفة مأواها فى الشجرة بالرغم من كل ما بذلت من محاولات. ومما لاشك فيه انه كان من الممكن أن أتزوج منها لو لم يحدث هذا الشئ لأننا كنا نتبادل الميل كلانا إلى الآخر ولكن الشئء حدث.

ففى ذات صباح لم تظهر السريعة وكنت أنا ومسترخى الأذن عند مصب البركة تلعب على الكتل الخشبية وما كدنا نخرج فوق الماء حتى فوجئنا بصوت زئير الغضب كان زئير العين الحمراء وهو قابع على حافة كتلة جذوع الأشجار ينفث كراهيته من عينيه وخفنا خوفاً شديداً لأنه لم يكن لدينا هنا كهف ضيق المدخل يمكن أن نلوى إليه. ولكننا وجدنا الأمان المؤقت فى العشريين قداماً من الماء التى تفصل بيننا وبينه وجمعنا أطراف شجاعتنا. وانتصب العين الحمراء واقفاً وأخذ يدق صدره المشعر بقبضة يده. وكانت الكتلتان الخشبيتان اللتان ترتقيهما جنباً إلى جنب فجلسنا عليهما وأخذنا نضحك منه وكان ضحكنا فى أول الأمر فائراً ممزوجاً بالخوف ولكن عندما اقتنعنا بعجزه انطلقنا نضحك مقهقهين. وهاج وثار فينا وعض على نواجذه فى غضب يائس وأخذنا نحن فى أمننا المتخيل نسخر منه. كان شأن قبيلتنا قصر النظر.

وكف العين الحمراء فجأة عن دق صدره وعن عض نواجذه وجرى إلى الشاطئء.

وفجأة توقف مرحناً وحل محله الرعب. فلم يكن العين الحمراء الذى ينسى انتقامه بمثل هذه السهولة. وانتظرنا فى خوف ما سيحدث ونحن ترتعب. ولم يخطر ببالنا أن نجدف بعيداً. وعاد إلى الكتلة الخشبية بقفزات واسعة وإحدى يديه قابضة على حصاة كبيرة مستديرة غسلها الماء. وقد أسعدنى أنه لم يستطع أن يجد حصاة أكبر حجماً مما يزن رطلين أو ثلاثة أرطال إذ لم تكن على بعد يزيد عن عشرة أقدام منه وكان من الممكن بالتأكيد أن نقتلنا.

ولم يكن الخطر المحدق بنا هيناً، ومرت بنا حصاة وهى مندفة كالرصاصة

فالكلاب تحلم والحياد تحلم وجميع الحيوانات تحلم وفى أيام السن الكبيرة كان أنصاف البشر يلعبون فإذا كانت الأحلام سيئة عووا أثناء نومهم والآن أنا الرجل الحديث رقدت رقدة السن الكبيرة وحلمت أحلامه.

وأعرف أن هذا يفوق طاقة العقل على الاستيعاب ولكنى أعرف أنى فعلت هذا الشئء. ودعنى أقول لك أن أحلام السن الكبيرة عن الطيران والزحف كانت حيوية عنده حيوية حلم السقوط فى الفضاء بالنسبة لك.

لأن السن الكبيرة كانت له ذات أخرى وعندما ينام ترجع ذاته الأخرى إلى الماضى إلى ماضى الزواحف المجنحة وصدام وهجوم التين وإلى ما يسبق ذلك من ماضى الحيوانات الثديية الدقيقة التى تشبه الحيوانات القارضة وماهو أبعد من ذلك.

وهو وحل شاطئء البحر البدائى ولا أستطيع ولا أجرؤ على أن أقول أكثر من هذا فالأمر كله بالغ الغموض والتعقيد بصورة مخيفة وكل ما أستطيع الإشارة إليه من هذا المنظور الفسيح الرهيب الذى من خلاله تطلعت بصورة غامضة إلى تتابع الحياة لا علوا من القرود إلى الإنسان بل علوا من البودة.

والآن أعود إلى قصتى ولم أعرف أنا السن الكبيرة السريعة كمخلوقة ذات تناسق وجهى وجسدى رقيق ولها عينان طويلتان الأهداب وتحتهما أنف وخياشيم مفتوحة إلى أسفل مما يجعلها أقرب إلى الجمال بل عرفتها فقط على أنها الانثى ذات العينين العذبتين التى تصدر أصواتاً خافتة ولم تقاتل وكنت أحب اللعب معها نون أن أدرى سبب ذلك وأحب البحث عن الطعام وأنا فى صحبتها والبحث عن أعشاش الطير معها ولا بد من أن أعترف بأنها علمتنى أشياء عن تسلق الشجر وكانت غاية فى الحكمة والقوة ولم تكن تعطل حركاتها ثياب تتعلق بجسدها.

وفى هذا الوقت حدث قصور من جانب مسترخى الأذن إذ تعود التجول بعيداً فى اتجاه الشجرة التى تعيش عليها أوى بعد أن شعر بميل إلى أختى الشريرة وأصبح الثرثار يتسامح معه كان هناك عدة شباب هم ذرية الزوجين القيمين بجواره فكان مسترخى الأذن يلعب مع هؤلاء الصغار.

ولم أستطع إقناع السريعة بالانضمام إليهم. وكلما زرتهم تخلفت هى ورأى

فأقبلنا أنا ومسترخى الأذن على التجديف بهوس. وجاءت حصاة أخرى وصرخ مسترخى الأذن من الألم المفاجيء. إذ كانت الحصاة قد أصابت ما بين كتفيه ثم أصابتنى حصاة أخرى وصحت ولم ينقذنا سوى نفاذ ذخيرة العين الحمراء واندفع مرة أخرى إلى حوض الحمصي طلباً للمزيد بينما مضينا أنا ومسترخى الأذن نجدف بعيداً.

وابتعدنا عن مرماه تدريجياً وأن كان العين الحمراء قد استمر في القيام برحلات من أجل المزيد من الذخيرة واستمر الحمصي يئز حولنا وكان في منتصف البركة تيار خفيف ولم نلاحظ أنه يدفعنا إلى النهر بسبب ما كنا فيه من انفعال وجدفنا وظل العين الحمراء محافظاً على قربه منا ما استطاع بمتابعتنا على طول الشاطئ ثم اكتشف حجارة أكبر. وزادت هذه الذخيرة من طول مداه. وسقطت شظية تزن خمسة أرطال كاملة على الكتلة الخشبية بجوارى بلغ من تأثيرها أنها أثار عدّة شظايا من الخشب فأصابت ساقى كالأبر. ولو أصابتنى تلك الشظية لقتلتى، وعندئذ أدركنا تيار النهر. وكنا نجدف بشدة لدرجة أن العين الحمراء كان أول من لاحظ وجود التيار وكان أول إنذار لنا صيحة انتصاره.

وكما لمس طرف التيار ماء البركة حدثت مجموعة من دوامات ووقعت الكتلتان الخشبيتان في إحدى هذه الدوامات وأخذتا تدوران حول نفسيهما. وكففتنا عن التجديف وكرسنا كل طاقتنا لبقاء كتلتى الخشب متلاصقتين معاً. وظل العين الحمراء يعطرننا بقذائفه وشظايا الحجارة تتساقط حولنا وتنتثر الماء علينا وتهدد حياتنا بالخطر. وأخذ يتفرس فينا في نفس الوقت بوحشية وغير النهر اتجاهه تغيراً شديداً عند مدخل البركة ومضى التيار الرئيسى للنهر كله إلى الشاطئ الأخر فطفوينا بسرعة ناحية ذلك الشاطئ. ونحن ماضون عبر الغدير في نفس الوقت وأبعدنا هذا بسرعة عن متناول العين الحمراء ورأيناه آخر ما رأيناه بعيداً جداً على بقعة من الأرض يقفز علواً وسفلاً يغنى أغنية النصر.

ولم نفعل أنا ومسترخى الأذن أكثر من إبقاء الكتلتين جنباً إلى جنب مستسلمين لقدردنا وظللنا مستسلمين حتى انتبهنا إلى أننا نطفو على طول الشاطئ الشمالي دون أن نبتعد أكثر من مائة قدم وابدأنا نجدف نحوه. وهنا

اتجهت القوة الأساسية للتيار إلى الورا نحو الشاطئ الجنوبي وأسفر تجديفنا عن عبورنا التيار حيث كان في أقصى سرعته وأضيق مساحته ونجونا منه وأصبحتنا فى دوامة خفيفة قبل أن ندركا ما حدث لنا.

وظفت كتلتانا الخشبيتان ببطء وأخيراً جنحتنا إلى الشاطئ، برفق وزحفنا أنا ومسترخى الأذن إلى الشاطئ، وظفت الكتلتان خارجتين عن الدوامة ومضتا بعيداً فى مجرى الغدير ونظر كلانا إلى الآخر ولكننا لم نضحك فقد كنا فى أرض غريبة ولم يخطر ببالنا أننا نستطيع العودة إلى أرضنا على نفس النحو الذى جننا به. وتعلمنا كيف نعبّر نهراً ولم تكن نعرف ذلك من قبل وهو أمر لم يفعله غيرنا من أهل القبيلة. وكنا أول من وضع قدمه من أهل القبيلة على الشاطئ الشمالي للنهر. ومما لاشك فيه أنهم فعلوا ذلك فيما بعد ولكن هجرة أهل النار وما تلاها من هجرة الذين بقوا من القبيلة عطل تطورها عدة قرون.

وليس هناك من سبيل فى الحقيقة لمعرفة كم كانت نتيجة هجرة أهل النار مفجعة وأميل شخصياً إلى الاعتقاد بأنها قضت على القبيلة وأتانا كفرع من الحياة الدنيا التى هى براعم الإنسانية هلكتنا بسبب أمواج الشاطئ الصخرى الهادرة حيث يصب النهر فى البحر. وفى مثل هذا الحدث طبعاً لا بد أن أكون قد تعبت ولكنى أسبق قصتى. وسيتم مثل هذا الحساب قبل أن ينتهى أمرى.





ومشينا يومين حتى بلغنا البحيرة وكان الجوع قد أنهك قوانا ولكننا وجدنا على شاطئ البحيرة عجلا نائما بعض الشيء نائما في راحة وسط دغل، وقد أتعبنا كثيرا لأننا لم نعرف وسيلة أخرى لقلته سوى أيدينا، وبعد أن أكلنا منه كفايتنا حملنا بقية اللحم إلى الغابة الشرقية وأخفيناه في شجرة، ولم نعد إلى تلك الشجرة أبدا لأن شاطئ الغدير الذي كان يستمد ماءه من البحيرة النائية كان حافلا بسكم السلمون الذي جاء من البحر ليضع بيضه هناك.

وامتدت الأرض المعشبة غربى البحيرة وفيها الكثير من ثيران وماشية برية كما كانت فيها عدة قطعان من الكلاب الضارية ولما لم تكن هناك أشجار فإنها لم يكن لتكفل لنا الأمان، وعندئذ ولسبب لا أعرفه تركنا الغدير فورا فجأة ومضينا نحو الشرق ثم نحو الجنوب الشرقي وسرنا خلال غابة كبيرة ولن أثير ملك برحلتنا وكفى بالإشارة إليها لأبين لك كيف وصلنا إلى بلاد أهل النار.

وخرجنا إلى النهر ولكننا لم نعرف أنه هو نهرنا فقد انقضى وقت طويل على تيهنا إلى حد أننا أصبحنا نتقبل حالة التيه على أنها أمر مألوف، وعندما أسترجع الذكري أرى بوضوح كيف أن حياتنا ومسيرنا كانت تشكلها مجرد المصادفات لم نعرف أن النهر نهرنا - فلم تكن لنا وسيلة لمعرفة ذلك ولم نعيده قط - ولولا المصادفة لما كان من المحتمل أن نعود إلى القبيلة وأنا الرجل الحديث - الذى سيولد بعد ألف قرن ما كنت لأولد.

ومع ذلك فإننا أنا ومسترخى الأذن كنا نريد العودة كثيرا فقد أحسنا حيننا إلى الوطن وكذلك الالهة إلى نوعنا وأرضنا وغالبا ما تعاودنى ذكرياتي عن السريعة تلك الأثني الصغيرة التى تصدر أصواتا خافتة تلك التى يجعل أن يكون المرء معها والتى تعيش وحدها دون أن يعرف أحد أين تعيش وذكرياتي عنها مصحوبة بإحساس الجوع وهو إحساس أحسه عندما لا أكون جائعا وعندما أنتهى من تناول الطعام.

ولكن لنعد إلى النهر، كان الطعام فقيرا وخاصة التوت والنباتات التى تختزن - العصير فى جنورها وأخذنا نلعب على شاطئ النهر وبقينا أياما وعندئذ خظرت لمسترخى الأذن فكرة وكانت عملية ورود الفكرة مرئية وأصبح التعبير الذى تنطق به عيناه تعبيراً عن الشكوى والشجار، وانزعج كثيرا ثم غامت عيناه كما لو كان

قد فقد سيطرته على الفكرة غير الكاملة ثم أعقب ذلك التعبير عن الشكوى والشجار أن ظلت الفكرة متشبثة بالبقاء فقبض عليها من جديد ونظر إلى ثم إلى النهر ثم إلى الشاطئ البعيد وحاول أن يتكلم ولكن لم تكن لديه الأصوات التى يعبر بها عن الفكرة وجاءت النتيجة مهممة وتمتمت جعلتني أضحك وأغضب هذا وأمسك بى فجأة وألقاني على ظهري وتقاتلنا طبعاً وفى النهاية طارت به فوق شجرة حيث أمسك غصنا طويلا أخذ يدفعني به عنه كلما حاولت الوصول إليه.

وذهبت الفكرة بعد أن تضاعفت تدريجيا ولم أعرفها أما هو فقد نسيتها ولكننا استيقظت عنده ثانية عندما استيقظ فى الصباح التالى، ربما كانت غريزة الموى وهى تؤكد نفسها فجعلت الفكرة تتشبث بالبقاء وعلى كل حال كانت موجودة وأوضح من ذى قبل وقادني حتى الماء حيث جاء المد بكتلة من الخشب على الشاطئ وظننته يريد أن يلعب كما لعبنا من قبل عند مصب البركة ولم أعبّر عن رأى وأنا أرقبه يقيد كتلة خشبية بأخرى بها بعد أن أتى بها من مكان بعيد على الشاطئ.

وبعد أن أصبحنا على الكتلتين جنباً إلى جنب ممسكين إياهما بأيدينا وجدنا حتى أصبحنا داخل التيار علمت نياته وتوقف وأشار إلى الشاطئ البعيد واستأنف التجديف وهو يتمتم فى الوقت نفسه صيحات عالية ومشجعة، وفهمت وأخذنا نجدف، بحماس ووقنا فى قبضة التيار السريع فقفذ بنا ناحية الشاطئ الجنوبي ولكن قبل أن نستطيع الهبوط قذف بنا مرة أخرى ناحية الشاطئ الشمالي.

وهنا ثار الشقاق، رأيت الشاطئ الشمالي شديد القرب فبدأت أجدف نحوه وحاول مسترخى الأذن أن يجدف ناحية الشاطئ الجنوبي، ودارت الكتلتان الخشبيتان فى دائرة ولم نصل إلى أى مكان وظلت الغابة تبتعد عنا إلى الورا ونحن طافيان على سطح الغدير ولم نستطع المقاومة، وكان خيرا لنا عدم إخلاء قبضة أيدينا وأرجلنا على الكتلتين الخشبيتين مما يبقيهما معا، ولكننا نثرنا ونبادلنا السباب بالسنتنا حتى فذف بنا التيار نحو الشاطئ الجنوبي ثانية، كان هذا هو أقرب هدف لنا الآن وأخذنا نجدف نحوه ونحن متحابان وهبطنا عليه مع المد وتسلفنا الأشجار مباشرة لتتعرف على المكان الذى نحن فيه.



## الفصل الثالث عشر

ولم نكتشف أهل النار إلا ليلة أول يوم لنا على الشاطئ الجنوبي من النهر  
ولابد أنهم جماعة من الصيادين الجائلين قد عسكروا بالقرب من الشجرة التي  
اخترت أنا ومسترخي الأذن أن نقضى عليها ليلتنا وأخافتنا أصوات أهل النار في  
أول الأمر ولكن النار اجتذبتنا فيما بعد حين خيم الظلام وزحفنا في حذر وانتقلت  
من شجرة إلى أخرى حتى أصبحنا نرى المنظر جيدا.

ففي مكان مكشوف بين الأشجار وقريب من النهر كانت النار مشتعلة وحولها  
سنة من أهل النار، وأمسكنى مسترخي الأذن على حين فجأة وأحسست أنه كان  
يرتعد وأمعنت النظر فرأيت الصياد العجوز الصغير الضامر الذي كان قد أصاب  
ذا السن المكسورة وأوقعه من فوق الشجرة منذ عدة أعوام، وعندما نهض ومشى  
إلاني وقودا جديدا على النار رأيت أنه كان يعرج بساقه الكسيرة، وكاننا ما كانت  
إصابته فإنها كانت إصابة دائمة وبدا لي أكثر جفافا وضمورا عنه قبلا وقد شاب  
شعر وجهه كثيرا.

ولاحظت أن الصيادين الآخرين شبان وعلى مقربة منهم على الأرض قسيهم  
وسهامهم وعرفت هذه الأسلحة ويرتدي أهل النار جلود الحيوانات حول أوساطهم  
وعلى أكتافهم أما أذرعهم وسيقانهم فهي عارية ولم ينتعلوا شيئا في أقدامهم،  
وكما قلت من قبل لم يكونوا مشعرين مثلنا نحن القوم، ولم تكن لهم رؤوس ضخمة  
والفارق بينهم وبين القبيلة فارق صغير في درجة انحدار الجبينين فوق العينين إلى  
الوراء.

وكانوا أقل انحناء منا وأقل ثوبيا في حركاتهم منا.. وبدت سلاسلهم الفقرية

وأفخاذهم وربكهم أشد صلابة منا، وليست أذرعهم شديدة الطول مثل أذرعنا ولم  
 ألاحظ قط أنهم يعملون على حفظ توازنهم مثلما نفعل أثناء المشي بلمس الأرض  
 بالأيدي من الجانبين كما أن عضلاتهم أكثر استدارة واتساقا من عضلاتنا  
 ووجوههم أكثر وسامة من وجوهنا وفتحات أنوفهم إلى أسفل كما أن قصبات  
 أنوفهم أكثر نموا وليست مربعة أو ممشمة كقصبات أنوفنا أما شفاههم فهي أقل  
 استرخاء وتبدليا ومن شفاهنا وليست أنيابهم كبيرة كثياب الحيوان وعلى كل حال  
 فإنهم رقيقوا الشفاه مثلنا تماما ولم يزد وزنهم عن وزننا واختلافهم عنا في جملة  
 أقل من اختلافنا عن أهل الشجر ومن المؤكد وجود علاقة بين جميع الأنواع الثلاثة  
 بل أن هذه العلاقة ليست بعيدة.

وكانت النار التي جلسوا حولها جذابة بصفة خاصة وجلسنا أنا ومسترخى  
 الأذن - ساعات ونحن نرقب الذهب والدخان ومن أكثر المناظر سحرا منظرهم حين  
 يلقون وقودا جديدا على النار فينطلق الشرر إلى أعلى وأردت أن أقترب وأن أنظر  
 إلى النار ولكن لم يكن هناك من سبيل كنا قابعين في ملتقى فروع شجرة على  
 حافة المكان المكشوف ولم نجروا على المخاطرة بكشف أمرنا.

وتربع رجال النار حول النار وناموا وقد احتوتوا رؤوسهم إلى الأمام فوق  
 ركبهم، ولم يكن نومهم عميقا بل كانت أذانهم تختلج أثناء نومهم كما كانوا  
 مضطربين وبين الحين والحين ينهض أحدهم ويلقي مزيدا من الخشب فوق النار،  
 وحول دائرة الضوء في الغابة وفيما وراء هذه الدائرة من ظلام كانت الحيوانات  
 المفترسة تتجول وقد عرفنا أنا ومسترخى الأذن ذلك من أصوات هذه الحيوانات  
 كانت كلابا برية وضبعا، ثم جاء صوت عواء كبير ومجزرة وأيقظ هذا الصوت على  
 الفور كل رجال النار الثامنين.

ووقف أسد وليؤة تحت شجرتنا وحديقا النظر بأعين ترمش وشعر منغوش،  
 ولحق الأسد أضلعه وأصابته حالة عصبية بسبب لهفته كما لو كان يريد المضى  
 قدما ويفترس أحدا ولكن اللبؤة كانت أكثر حذرا، وكانت هي التي اكتشفتنا ووقف  
 الاثنان وتطلعا إلينا في صمت وخياشيمهما تختلج وتتشمم الرائحة، ثم زمجرا  
 ونظرا إلى النار مرة أخرى ثم استدارا - عاندين إلى داخل الغابة.

وبقينا أنا ومسترخى الأذن وراقبنا وقتا أطول، وسمعنا من وقت لآخر صدام  
 أجسام ثقيلة في الأدغال وبين النباتات القصيرة، ورأينا في الظلام في الناحية  
 الأخرى من وراء الدائرة أعينا تلمع في ضوء النار، وسمعت زئير أسد قادما من  
 بعيد ومن بعيد جدا سمعنا صياح حيوان وقع بين أنياب حيوان آخر مفترس وهو  
 يتخبط في مورد ماء وينثر حوله رشاش الماء، وجاء من النهر أيضا خوار  
 الخريت وهو خوار ضخم.

وفي الصباح وبعد أن لنا نصيبنا من النوم زحفنا عائدين إلى النار وكانت  
 تحترق بغير لهب وكان أهل النار قد رحلوا ودرنا حول النار ونحن داخل الغابة  
 لنطمئن إلى عدم وجود أحد ثم جرينا نحو النار، وكنت أريد أن أرى ما هي  
 والتفتت بأصبعي الإبهام والسبابة قطعة من الفحم المتوهج ولما صرخت ألما وخوفا  
 وأنا أدعها تسقط من يدي أسرع مسترخى الأذن إلى الأشجار وأخافني فراره  
 فجريت وراءه.

وعدنا في المرة التالية أكثر حذرا وتحاشينا الفحم المتوهج وأخذنا نقلد أهل  
 النار فتربعنا بالقرب من النار وأحنينا رأسينا فوق ركبتينا وتظاهرننا بالنوم، ثم  
 قلدنا كلامهم وأخذ كلانا يكلم الآخر على طريقتهم، ويكثر من الثرثرة وتذكرت  
 رؤيتي الصياد العجوز الحليل وهو يقلب النار بعضا وقلبت النار بعضا ورفعت  
 كتلا من الفحم المتوهج وسحبا من الرماد الأبيض وكانت هذه لعبة عظيمة  
 وسرعان ما غلفنا الرماد الأبيض بغلالة منه.

ولم يكن هناك مفر من أن نقلد أهل النار في تجديد النار، وحاولنا ذلك في أول  
 الأمر بقطع صغيرة من الخشب ونجحنا في ذلك، والتهب الخشب وطقق ورقصنا  
 وثرثرنا ابتهاجا ثم أخذنا نلقي قطعنا من الخشب أكبر من السابقة وأخذنا نضيف  
 إليها أكثر فأكثر حتى أصبحت لدينا نار قوية وأخذنا نندفع إلى الوراء وإلى الأمام  
 ونجر فروع الأشجار الميتة من داخل الغابة، وارتفع اللهب عاليا وازداد ارتفاعا  
 أكثر فأكثر وارتفعت أعمدة الدخان إلى مايفوق ارتفاع الأشجار وأصبح هناك  
 شرر وطققة وزئير على نحو هائل، وكان هذا أضخم عمل قمنا به بأيدينا وكنا  
 فخورين به إذ رأينا ونحن نرقص كقرميين أبيضين أمام اللهب أننا أصبحنا نحن  
 الآخرين من أهل النار.

فضولنا بالنظر إلى القرية، ورأينا لأول مرة نساء وأطفال النار، وكان أغلب الأطفال عراة أما النساء فكان يرتدين جلود الحيوانات المقترسة. جئنا إلى الكهوف وأهل النار مثلنا يعيشون في كهوف، وكان المكان المكشوف أمام الكهوف منحدرًا نحو النهر، وكان في هذا المكان المكشوف عدة نيران صغيرة تحترق ولكني لم أعرف إذا كان أهل النار يطهون طعامهم أم لا فإني لم أرهم يطهون طعامهم كما أن مسترخی الأذن لم يرههم يفعلون ذلك، ومع ذلك فإني أرى أنهم كانوا بالتأكيد يقومون بنوع ساذج من الطهو، وكانوا مثلنا يحملون الماء من النهر في جرار وكان هناك كثير من الغنو والرواح وصيحات عالية من النساء والأطفال وكان الأطفال يلعبون ويمرحون تماما كما يفعل أطفال القبيلة وكانوا أكثر شبها بأطفال القبيلة من مشابهة الكبار من أهل النار للكبار من القبيلة.

ولم تمهل أنا ومسترخی الأذن فقد رأينا بعض الفتیان يطلقون سهامهم من قسيهم وتسللنا داخلين الغابة الأشد كثافة واتخذنا سبيلنا إلى النهر وهناك وجدنا طوقا حقيقيا من صنع بعض أهل النار بداهة وكانت الساقان صغيرتين مستقيمتين وقد - ثبتت كلتاهما بالأخرى بجداول قوية وقطع متعارضة من الخشب.

وفي هذه المرة خطرت الفكرة لكلينا في وقت واحد وهي أن نحاول الهرب من أرض أهل النار وأية طريقة أجمل من عبور النهر على هذه الكتل؟ وارتقين الطوف ودفعناه بعيدا عن الشاطئ، وعلى حين فجأة أمسك شيء ما الطوف ودفعه في مجرى الغدير بعنف حتى ارتطم بالشاطئ، وكاد وقوف الطوف فجأة يلقى بنا في الماء، كان الطوف مقيدا بحبل من جذور الأشجار المعقدة بشجرة فكنتا هذا القيد قبل أن ندفع الطرف مرة أخرى بعيدا عن الشاطئ.

وفي الوقت الذي أصبحنا فيه نجدف جيدا في التيار كنا قد قطعنا شوطاً طويلاً في الغدير حتى أصبحنا على مرأى من موطن أهل النار وكنا مشغولين بالتجديف وأعيننا متجهة إلى الشاطئ الآخر إلى حد لم يدعنا نعرف شيئا حتى أثارنا صيحة آتية من الشاطئ ونظرنا وراعا فرأينا الكثيرين من أهل النار يمشون ويشيرون إلينا، وكان هناك غيرهم يزحفون خارجين من الكهوف، وجلسنا

ولحقت النار بالعشب الجاف والنباتات الصغيرة ولكننا لم نلاحظ ذلك وعلى حين فجأة اشتعلت شجرة كبيرة على حافة الأرض الفضاء وغطاها اللهب ونظرنا إليها في فرع، ودفعتنا الحرارة الشديدة المنبعثة منها إلى الابتعاد عنها ثم لحقت النار بشجرة أخرى فثالثة ثم بست أشجار، وخفنا فقد انطلق المارد الجبار وقبعا على الأرض في خوف والنار تاكل دائرة الأشجار المحيطة بالأرض الفضاء وتحاصرنا، وظهرت في عيني مسترخی الأذن النظرة الشاكية، وعرفت أن هذه النظرة لابد أن تكون قد ارتسمت في عيني، واحتضن كلانا الآخر وأحاطه بذراعيه حتى بدأت الحرارة تصل إلينا وملأت خياشيمنا رائحة الشعر المحترق، وعندئذ اندفعنا خارجين من ذلك الجحيم وهربنا غربا عبر الغابة ونحن ننظر إلى الوراء ونضح ونجرى.

حتى إذا انتصف النهار بلغنا عنقا من الأرض كان كما تبينا فيما بعد نتيجة لانحناءه كبيرة من النهر كادت تتم دائرة وعبر عنق الأرض اجتمعت عدة تلال منخفضة تغطي - الغابات بعضها وارتقيننا هذه التلال ونظرنا إلى الوراء نحو الغابة التي أصبحت بحرًا من اللهب يكتسح طريقه شرقا أمام ربح قوية وتابعا سيرنا غربا متتبعين شاطيء النهر وأصبحنا نود أن ندرى وسط موطن أهل النار. وكان هذا الموطن موقعا استراتيجيا رائعا فهو شبه جزيرة يحميها انحناء النهر من ثلاث جهات ولم يكن الوصول إليها ميسورا إلا من جهة واحدة وهذه الجهة هي عنق شبه الجزيرة الضيق، وكانت مجموعة التلال المنخفضة في هذه الناحية عائقا طبيعيا ولما كان أهل النار هنا في عزلة تامة عن بقية العالم فلا بد أن يكونوا قد عاشوا وازدهروا وقتا طويلا، بل أنني أرى في الواقع أن ازدهارهم هذا هو السبب في هجومهم الذي أنزل الكوارث الرهيبة بالقبيلة ولا بد أن يكون عدد أهل النار قد زاد إلى درجة شديت ضغطهم على حدود موطنهم بصورة غير مريحة، وأخذوا في التوسع وفي أثناء هذا التوسع طربوا القوم أمامهم واستقروا هم أنفسهم في الكهوف واحتلوا الأرض التي كنا نحتلها.

وخلصنا أنا ومسترخی الأذن بكل هذا عندما وجدنا نفسينا في معقل أهل النار ولم تكن لدينا سوى فكرة واحدة وهي الهرب، وإن لم نستطع الامتناع عن إرضاء

وراقبنا ونسبنا أمر التجديف، وثارت - ضجة كبرى على الشاطيء، وصوب بعض أهل النار قسيهم نحونا وسقطت بعض السهام بالقرب منا ولكن المسافة بيننا وبينهم كانت أكبر من أن نستطيع السهام قطعها.

وكان يوما عظيما لنا أنا ومسترخى الأذن فى الشرق كان الحريق الذى أشعلناه يملا نصف السماء بالدخان وهنا أصبحنا فى أمان وسط النهر الذى يحيط بمعقل أهل النار، وجلسنا وضحكنا منهم فى اندفاعنا جنوبا مرة وجنوبا بشرق مرة أخرى وشرقا مرة تالئة بل وأحيانا شمالا بشرق ثم شرقا ثانية ثم جنوبا بشرق وجنوبا ثم ندور غربا فى منحنى مزوج كبير حيث كان النهر ينعقد تقريبا فى عقدة.

وإذ أخذنا سبيلنا غربا وقد خلفنا وراعا أهل النار رأينا منظرا مألوفًا لأنظارنا كان ذلك منظر موردة الماء حيث تجولنا مرة أو مرتين للرقب مجموعة الحيوانات وهى تنزل الموردة تشرب ومن وراء هذه الموردة رقعة الجزر ومن وراء هذه كهوف ومواطن القبيلة وأخذنا نجدف نحو الشاطيء الذى أخذ ينزلق بسرعة مارا بنا وأصبحنا أمام الموردة التى تستخدمها القبيلة بون أن ندرى، وهناك كانت النساء والأطفال من حاملى الماء يملأون جرارهم وإذ رأونا تدافعوا فى جنون صاعدين الدروب تاركين وراءهم صفا من الجرار التى سقطت منهم.

ونزلنا إلى الشاطيء، ونسبنا طبعًا أن نعيد الطوق فطفًا فوق النهر ماضيا نحو الجنوب، ورحفنا فى حذر عبر أحد الدروب، وكانت القبيلة قد اختفت كلها داخل كهوفنا وإن كنا مستطيعين رؤية وجه ما يطل علينا هنا وهناك، ولم يكن هناك أثر للعين الحمراء، وقد عدنا إلى وطننا وفى تلك الليلة نمنا فى كهفنا الصغير فى قمة الجوف وذلك بعد أن طردنا اثنين من الصغار المشاكسين كانا قد استولينا عليه.

## الفصل الرابع عشر

وجاءت الشهور ومضت، وكانت أحداث ومأسى المستقبل تنتظر دورها على المسرح ونحن نكسر البنق ونعيش . وحصول ذلك العام من البنق وبقيرا . فكنا نملأ الجرار بنديقا ونحملها الى أماكن الكسر . ونضع البنق فى حفر من الصخر ونمسك بأيدينا قطعة من الصخر ونكسر بها وناكل القوي بعد كسر الغلاف .

وحيثما عدنا أنا ومسترخى الأذن من رحلة مفارمتنا الطويلة كان الوقت ظرفا وكان الشتاء الذى تلاه معتدلا وقد قمت خلاله برحلات كثيرة الى مايجاور شجرة موطنى القديمة وغالبا ساكنت فى كهف مملء من الأرض الواقعة بين مستنقع التوت الأزرق ومصب بركة الماء حيث تعلمت أنا ومسترخى الأذن الملاحه ولكنى لم أعثر على أثر للسريعة . كانت قد اختفت وكنت أريدها مدفوعا إلى هذا بذلك الجوع الذى ذكرته من قبل هو يماثل الجوع البدينى ولو أنه غالبا مايفرض نفسه على معدتى ممتلئة ولكن راح بحثى كله عبثا .

ولم تكن الحياة فى الكهوف ممتلئة على كل حال . ولا بد من أن تأخذ العين الحمراء فى الاعتبار . وماكنا أنا ومسترخى الأذن نعرف لحظة راحة الا عندما يضمننا كهفنا الصغير . وبالرغم من قيامنا بتوسيع المدخل فإنه ظل ضيقا يتطلب منا عصر جسدينا حتى نستطيع المرور منه . وبالرغم من أننا دأبنا على توسيعه من وقت لآخر الا أنه لم يكن يسمح بمرور جسد العين الحمراء الجبار ولكنه لم يحاول اقتحام كهفنا مرة أخرى . بعد أن اتعظ وبقيت فى عنقه تلك الكتلة المتورمة نذل على الموقع الذى ضربته فيه بالحجر . ولم يذهب هذا الورم أبدا بل ظل بارزا بحيث يرى من بعيد . وغالبا ماكننت أبتهج كثيرا وأنا أرقب هذا البرهان على براعتى بل أحيانا كان منظر الورم يدفعنى الى الضحك حين أكون فى أمان .

وإن لم تشأ القبيلة الإسراع إلى نجدتنا إذا أقدم العين الحمراء على تمزيقي أنا ومسترخی الاذن أربا أمام أعينهم الا أن القوم بالرغم من ذلك كانوا يعطفون علينا . وربما لم يكن ذلك عطفاً بل كانت طريقتهم في الإعراب عن كراهيتهم للعين الحمراء على أية حال فقد كانوا يندروننا دائماً باقتراهه . ويسرعون بانذارنا دائماً سواء في الغابة أم في موردة الماء أم في المكان المكشوف أمام الكهوف . وهكذا كنا نستفيد من عدة أعين في صراعنا مع العين الحمراء المرتد إلى الأصل .

وأوشك أن ينالني ذات مرة .. وكان ذلك في الصباح الباكر ولم يكن القوم قد استيقظوا بعد وكانت المفاجأة شديدة . وكنت بعيداً عن الطريق فوق الجرف الذي كهفي فاندفعت إلى داخل الكهف المزوج . ذلك الكهف الذي كان مسترخی الاذن قد زاغ مني فيه منذ أعوام طويلة وحيث انهزم سن السيف العجوز حين طارد اثنين من القوم . وفي الوقت الذي بلغت فيه نقطة التقاء الكهفين تبينت أن العين الحمراء لم يكن يتبعني . وفي اللحظة التالية دخل الكهف من الخارج . وتسلل عانداً من المر فرج وهاجمني من الناحية الأخرى ثانية . واكتفيت بأن كررت التسلل عبر المر .

وأبقاني هناك نصف النهار حتى تخلى عن المطاردة . وبعد ذلك كلما اطمأننا أنا ومسترخی الاذن إلى الوصول إلى الكهف المزوج لم نهرب صاعدين الجرف إلى كهفنا عندما يظهر العين الحمراء على المسرح . بل كل ما كنا فعله هو مراقبته حتى نتأكد من أنه لم لن يقطع علينا طريق التقهقر .

وفي خلال هذا الشتاء قتل العين الحمراء أحدث زوجاته بالسب والضرب المتكرر ولقد وصفته بأنه مرتد ولكنه في هذا أسوأ من المرتد لأن ذكور الحيوانات الدنيا لا تسمى معاملة رفيقاتها أو تقتلها وأرى أن العين الحمراء بالرغم من ميوله الارتدادية كان دلالة على مجيء الانسان لأن ذكور الجنس البشري وحدهم هم الذين يقتلون رفيقاتهم .

وعمد العين الحمراء - كما هو منتظر منه - بعد القضاء على إحدى زوجاته في البحث عن أخرى . وقرر أن يتزوج من المغنية وهي حفيدة عظم النخاع العجوز وابنة الامرد وكانت صغيرة لطيفة تنطلق في الغناء على باب كهفها عند الغسق

وهي حديثة عهد بالزواج من ذى الساق المعوجة . وهو شخص هادئ لا يزعج أحداً ولا يشاغب رفاقه . ولم يكن مقاتلاً على أية حال كان صغير الحجم نحيف العود بطيء الحركة بسبب اعوجاج ساقيه شأنه ذلك شأننا جميعاً .

ولم يرتكب العين الحمراء قط من قبل عملاً أشد شناعة من هذا . فقد حدث في آخر النهار حيث يسود الهدوء والتجمع في المكان المكشوف قبل تسلقنا الجرف إلى كهوفنا حدث أن جرت المغنية على حين فجأة صاعدة الدرب من مورد الماء والعين الحمراء في إثرها . جرت إلى زوجها . وخاف ذو الساق المعوجة الصغيرة المسكين خوفاً شديداً . ولكنه كان بطلاً عرف أن الموت أت إليه ومع ذلك فلم يهرب بل وقف وأخذ يترثر وينفش شعره ويكشف عن أسنانه .

وزأر العين الحمراء غضباً إذ يرى أن يجرواً واحد من القوم أن يقاومه . وامتدت يده وأطبقت على عنق ذى الساق المعوجة الذي غاصت أسنانه في ذراع العين الحمراء . ولكن عنقه انكسر في اللحظة التالية وأخذ يتلوى ويتخبط على الأرض . وصرخت المغنية وتمتمت وأمسكها العين الحمراء بشعرها وجذبها نحو كهفه . وجرها بخشوية وهما يتسلقان الجرف وألقى بها داخل الكهف .

وغضبنا كل الغضب . غضبنا بدرجة جنونية صارخة . وأخذنا نضرب صدورنا ونفث شعربنا ونكشف عن أسناننا وتجمعنا في هياجنا وأسنا غريزة التجمع والرغبة في جمع الصف كما لو كنا سنقوم بعمل موحد والحافز للتعاون . وقويت عندها هذه الحاجة إلى العمل الموحد ولكن لم يكن هناك من سبيل لإنجازه لأنه لم تكن هناك وسيلة للإعراب عنه . ولم تنجح للقضاء على العين الحمراء لأنه كانت تنقصنا مفردات اللغة وتفكيرنا غامض وأفكارنا بدون رموز فكرية هذه الرموز الفكرية التي اخترعت فيما بعد على مهل وبمشقة .

وحاولنا إصدار صوت يحمل الأفكار الغامضة التي تنقلت كالظلال خلال إدراكنا . وأخذ الأمر في الثرثرة بصوت عال وقد أعرب بضوضائه عن الغضب ، على العين الحمراء والرغبة في إيذاء العين الحمراء . كان هذا هو مبلغ ما حققتة ومبلغ ما فهمناه . ولكنه عندما حاول التعبير عن الحافز التعاوني الذي ثار في داخل نفسه أصبحت ضوضاؤه مهمة . وعندئذ أخذ ذو الوجه الكبير يترثر وهو

يضرب صدره بيديه وقد وقف شعر جبينه وأخذنا ننضم الواحد بعد الآخر الى موكب الهياج حتى عظم النخاع العجوز أخذ يصرخ ويتمتم بصوته المشروخ وشفثيه الذابلتين . وأمسك أهدنا عصا وأخذ يدق بها على كتلة خشبية ولم تمض لحظة حتى كان قد أحدث إيقاعا معيننا واستسلمت صيحاتنا واستنكارنا لهذا الإيقاع عن غير وعى منا وهذأت نفوسنا بفضل هذا الإيقاع ونسينا هياجنا بون أن نحس ذلك وانخرطنا في مجلس طرب .

وتعكس مجالس الطرب هذه صورة بارعة لعدم التتابع وعدم التسلسل عند القبيلة فها نحن جمع بيننا الهياج المشترك والدافع نحو التعاون ضللتنا الطريق واتجهنا الى النسيان بفضل وجود إيقاع فخ . كنا اجتماعيين يآلف بعضنا الآخر وكانت مجالس الطرب هذه بما فيها من غناء وضحك مشبعة لنا . وكان مجلس الطرب من بعض نواحيه دلالة على مجالس الانسان البدائي والجمعيات الوطنية الكبرى والمؤتمرات الدولية عند الانسان فيما بعد . أما نحن في العالم القديم عند نشأته فكان ينقصنا الكلام وكلما جمع بيننا شئاً أصبحنا صورة سابقة لبابل يصدر عنها إيقاع بالاجماع يتضمن ضروريات الفن الذي سيظهر فيما بعد . كان ذلك إرهابا بالفن .

ولم يكن بين هذه الإيقاعات التي ابتدعناها ما استمر طويلا بل سرعان ماكان الإيقاع يضيع وتسيطر الجلبة التي أن نعثر على الإيقاع أو نبدأ إيقاعا جديدا . وأحيانا تولد ستة إيقاعات في وقت واحد وكل إيقاع منها تويده جماعة تعمل بحماس شديد على إغراق الإيقاعات الأخرى وتغليبه عليها .

وفي الفترات التي تنقضى بين إيقاع وآخر تسود الجلبة ومنها يثرثر كل واحد أو يقطع الثرثرة أو يصيح أو يصرخ أو يرقص وهو مستقل عن غيره وهو مركز حقيقي للكون منفصل بصفة مؤقتة عن أي تآلف مع مراكز الكون الأخرى التي تقفز وتصبح من حوله . وعندئذ يظهر الإيقاع وتصفيق الأيدي والضرب بالعصا على كتلة خشبية والمثل الذي يضربه واحد بقفزة وترديده أو غناء واحد تفر وانتظام بدرجات مختلفة علوا وسفلا . «أبانج .. أبانج .. أبانج .. أبانج .. أبانج ..» يحتديه القوم الذي كان كل منهم متمركزا في نفسه لهذا الإيقاع الواحد في إثر الآخر

ويأخذ الجميع في الرقص أو الغناء الجماعي . ومن أحب أغانيها الجماعية «ها - أه ها - أه ها أه ها» كما كانت هناك أغنية جماعية أخرى محبوبه عندنا وهي ايه - واه .. ايه - واه .. ايه - واه هاه .

وهكذا أخذنا نرقص ونغنى بهذه الحركات الجنونية والقفزات والميل بأجسامنا في شفق العالم البدائي ننشد بها النسيان ونحقق بها التآلف والاتحاد وندير بها أدهمنا في الجنون الجسدي . وهكذا كان غضبنا وهياجنا على العين الحمراء قد الا بفضل تأثير الفن وأخذنا نصرخ الصرخات الجماعية العنيفة الخاصة بمجلس الطرب حتى حذرنا الليل من مخاوفه وزحفنا الى جحورنا في الصخور ونحن ننادى بأصوات خافتة بينما ييزغ النجوم يخيم الظلام .

لم نخف شيئا سوى الظلام . لم تكن لدينا عقيدة الدين أو أية مفاهيم من عالم غير منظور ولم نعرف سوى العالم الحقيقي فالأشياء التي نخافها هي الأشياء الحقيقية والأخطار الملموسة والحيوانات المفترسة التي هي من اللحم والدم هي التي تخيفنا من الظلام لأن الظلام هو الوقت الأنسب الذي تقوم الحيوانات المفترسة فيه باقتناص صيدها وفي ذلك الوقت تخرج من جحورها وتقفز على المرء من الأماكن المظلمة التي تكمن فيها غير منظورة .

وربما نشأ عن هذا الخوف من سكان الظلام الحقيقيين الخوف من السكان غير الحقيقيين ذلك الخوف الذي فيما بعد تجمع في صورة عالم غير منظور كامل واهوى ومن المحتمل أن يكون الخوف من الموت من نمو الحياة قد زاد الى حد دفع القوم الى دس هذا الخوف في الظلام وأسكتوه بالارواح . وأرى أن أهل النار قد بدأوا فعلا يخافون الظلام على هذا النحو . ولكن الأسباب التي دعتنا إلى إيقاف مجالس الطرب والهرب الى جحورنا هي سن السيف والأسود وأبناء أوى والكلاب المفترسة والذئاب وجميع أنواع أكلة اللحوم الجائعة .



ولما جاء الصيف قضيت أسابيع بعيدا عن الكهوف وأنا أنام فى مأوى بشجرة صنعته بالقرب من البركة .  
قلت أن مسترخى الاذن لم يكن سعيدا . فقد كانت أختى ابنة الثرثار وقد جعلت حياة مسترخى الأذن غاية فى الشقاء فلم يشهد أى كهف من الكهوف نزاعا أو شقاقا كالذى شهده كهفهما . وإن كان العين الحمراء فى فضاة ذى اللحية الزرقاء فإن مسترخى الاذن كان زوجا خاضعا لامراته وأتصور أن العين الحمراء كان أشد ذكاء من أن يستحوذ على زوجة مسترخى الاذن .  
ولحسن حظ مسترخى الاذن ماتت زوجته . فقد حدث شئ غير عادى خلال ذلك الصيف فقبل انتهاء الصيف نبت محصول جديد من الجزر المتشعب الجذور . وكانت هذه الجذور التى نمت على غير انتظار حلوة ورقيقة ممتلئة بالعصير . وظلت بقعة الجزر بعض الوقت مكان الغذاء المفضل عند القطيع . وفى ذات صباح مبكر كان الكثيرون منا يتناولون طعام إفطارهم من ذلك الجزر وكان الأمر جانبى وبعده كان أبو عظم النخاع العجوز وذو الشفة الطويلة . والى جانبى الآخر أختى ثم زوجها مسترخى الاذن .  
وعلى حين فجأة وبدون إنذار قفز الأمر وأختى واقفين وهما يصيحان وفى نفس اللحظة سمعت أزيزا لسهمين اللذين اخترقهما وفى اللحظة التالية كانا ممددين على الأرض يخبطان ويلهتان وتسابق الباقون منا إلى الأشجار ومررنا بسهم وغاص فى الأرض وأخذت ساقه المرشحة تهتز وتتذبذب تحت تأثير توقف سيره وأناذكر بجلاء كيف انحرفت جانبا وأنا أمر به وأتى أجدبته بيدي لأزيد سعة جذبته بون حاجة الى ذلك ولا بد أنى تهيبت كما يتهيب الجواد شيئا يخافه .  
وسقط مسترخى الاذن وهو يجرى بجوارى سقطه شديدة إلا أن سهما اخترق باطن ساقه وأوقفه وحاول أن يجرى ولكنه وقع ثانية . وجلس وهو يرتعد من الخوف ونادانى متوسلا واندفعت عائدا اليه . وأرأى السهم وأمسكته لأنتزعجه من ساقه ولكن الألم الناتج عن ذلك جعله يمسك بيدي ويحول بون أن أنقذ ما اعتز منه . ومر من بيننا سهم طائر وأصاب سهم آخر صخره وأطار شظاياها وسقط على الأرض . وكان هذا أكثر مما أحتمل فجذبت السهم فجأة بكل ما لدى من

ولم أوجه انتباهى الى ذلك الألم الشديد فى فخذى الا بعد أن أصبحت فى مأمن من تلك الوحوش وذلك عندما أصبحت على ارتفاع اثنى عشر قدما من قطع الكلاب المتوحشة العاوية وهى تقفز وتتزاحم على جدار الجرف وتسقط وأمسكت عنق الكلب المتعلق بى وأخذت أخنقه ببطء واستغرقت فى ذلك وقتا طويلا وهو ينشب مخالفه فى شعرى وجلدى فينتزع بساقيه الخلفيتين وأخذ يهتز ويهوى بنقله ليجرنى معه بعيدا عن جدار الجرف وأخيرا انفتحت أسنانه فخرجت من لحمى الممزق وحملت جسمه معى وأنا أصدع الجرف وقضيت الليلة قابعا فى مدخل كهفى القديم حيث كان مسترخى الاذن مع أختى واضطرتت بادئ ذى بدء الى احتمال عاصف من السباب من جانب القبيلة الذين اسيقظوا لأنى كنت السبب فى هذا الإزعاج وانتقمتم لنفسى بأن عمدت إلى إلقاء قطعة من الحطب على قطع الكلاب الضارية كلما خفت ضوضاؤها فتبدأ العواء من جديد وهنا يأتى من جديد سباب القوم من كل ناحية . وفى الصباح اقتسمت الكلاب مع مسترخى الاذن وزوجته وظلنا نحن الثلاثة عدة أيام لا نعيش إلا على الخضر أو الفاكهة .

ولم يكن زواج مسترخى الاذن زوجا سعيدا والعزاء الوحيد هو أنه لم يطل كثيرا وخلال الفترة التى استغرقها هذا الزواج لم يكن هو ولا أنا بالسعيد وشعرت بالوحدة وعانيت كثيرا مما سبب فى طردى من كهفى الأمل الصغير من إزعاج ولم أستطع الاتفاق مع أحد صغار الذكور الآخرين . الا ان طول معايشتى لمسترخى الاذن أصبح عادة .

وصحيح أنه كان من المحتمل أن أتزوج لولا نقص الاثاث فى القبيلة ومن العدل أن يفترض المرء أن مزجج النقص هو إسراف العين الحمراء فى القتل وهذا مصدر خطر على القبيلة وعندئذ ظهرت السريعة التى لم أنسها قط .  
وعلى كل حال ففى أثناء زواج مسترخى الاذن ظللت أنتقل من عمود لآخر وتعرضت فى كل ليلة قضيتها للخطر بون أن أتذوق طعما للراحة ومات أحد رجال القبيلة ونقلت أرملته الى كهف رجل آخر من الجماعة . واستوليت على الكهف المهجور ولكنه كان واسع المدخل وبعيد أن كان العين الحمراء يحاصرني فيه يوما ما عدت الى النوم فى الممر القائم داخل الكهف المزوج .



قوة. وصرخ مسترخى الاذن والسهم يخرج من ساقه وضربنى غاضبا ولكننا فى اللحظة التالية كنا نجرى باقصى سرعة معا .

ونظرت ورائى ورأيت عظم النخاع العجوز وهو وحده بعيد يترنح فى صمت فى سباقه العاجز مع الموت وكاد يسقط ذات مرة بل أنه سقط فعلا ولكن لم تعد هناك سهام طائرة . وتعثرت فى ضعف وهو يقف على قدميه . وكان عبء الشيخوخة ثقيلا جدا عليه ولكنه لم يشأ أن يموت واستطاع أهل الثأر الثلاثة الذين يجرون الآن من مكانهم فى الغابة أن ينالوه بسهولة ولكنهم لم يحاولوا ذلك وربما يرجع ذلك الى انه محض الشيخوخة والخسونة ولكنهم أرادوا - الأمر وأخستى لأنى عندما تطلعت الى الوراء من مكانى على الشجر ورأيت أهل النار يضربون رأسيهما بالحجارة . وكان أحد أهل النار ذلك الصياد العجوز الضامر الأعرج .

مضينا عبر الأشجار نحو الكهوف - جماعة مضطربة تأثرة تسوق أمامها صغار حيوانات الغابة الى جحورها وأخذ الطائر أبو زريق يصيح فى وقاحة والأذن وبعد زوال الخطر انتظر ذو الوجه الطويل جده عظم النخاع وبينهما فجوة جبل . وسار الشيخ العجوز والشاب فى مؤخرتنا .

وهكذا عاد مسترخى الاذن أعزب ونمت معه تلك الليلة فى الكهف القديم . وعادت صداقتنا من جديد . وبدا لى أن فقدته رفيقته لم يصبه باى حزن أو على الأقل لم ألاحظ ذلك ولم يزعجه سوى الجرح الذى ألم بساقه وقضى أسبوعا حتى عاد إليه نشاطه وخصته .

وكان عظم النخاع هو الوحيد فى القبيلة ويبدو لى أحيانا عندما أتذكره وتكون ذكراه واضحة جدا وجود مشابهة مذهلة بينه وبين والد البيستانى فقد كان والد البيستان عجوزا جدا كثير التجاعيد والضمور وكان وهو يطل من عينيه الضيقتين الكالحتين ويتمتم بلثته الخالية من الأسنان ينظر ويفعل كما كان عظم النخاع ينظر ويفعل وكانت هذه المشابهة تخيفنى فكنت دائما أجرى حين أرى الرجل العجوز يترنح وهو يتوكأ على عصاتين بل لقد كان لعظم النخاع لحية بيضاء قليلة الشعر تشبه شاربى الرجل العجوز الطويلين.

وكان عظم النخاع كما قلت الرجل العجوز الوحيد فى القبيلة وكان شاذا فى

ذلك إذ أن أعضاء القبيلة لم يعمروا طويلا بل أنه من النادر أن يصل واحد منهم الى منتصف العمر . وكان الموت العنيف الطريق العادى للموت . وكانوا يموتون كما مات أبى وكما مات ذو السن المسكورة وكما ماتت أختى وفى غمرة الحياة واندفاعها لقد كان الموت - العنيف هو الطريق الطبيعى للموت فى تلك الأيام .

ولم يمت أحد بالشيخوخة فى القبيلة ولا أعرف حالة واحدة لمثل هذه الطريقة للموت وحتى عظم النخاع لم يمت تلك الميتة وكان الوحيد فى جيلى الذى كانت له الفرصة لذلك . وكان العجز وأى عطب يأتى مصادفة معناه الموت السريع ولم أشهد مثل هذه الوفيات بصفة عامة . إذ كان أعضاء القبيلة يخفون ببساطة فهم يخرجون من الكهوف صباحا فلا يعودون . كانوا يختفون فى بطون الحيوانات المفترسة الضارية .

وكان اقتحام أهل النار حقول الجزر بداية النهاية بون أن نعرف ذلك وزاد - ظهور الصيادين من أهل النار مع مرور الزمن وكانوا يجيئون اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة يزحفون فى صمت خلال الغابة ومعهم سهامهم الطائرة القادرة على التغلب على البعد وعلى إسقاط الفريسة من قمة أعلى شجرة بون أن يتسلقوها هم . وكان القوس والسهم امتدادا لقدرتهم وعضلاتهم البارزة بحيث أنهم كانوا فعلا مستطيعين القفز والقتل على بعد مائة قدم وأكثر . ولقد جعلهم هذا أشد رهبة من سن السيف نفسه ثم كانوا حكماء كان لهم كلام يعينهم بصورة فعالة على الفهم والاضافة الى ذلك كانوا يفهمون التعاون .

أما نحن فكان الحذر يحدونا ونحن فى الغابة . وكنا أكثر يقظة وتأهبنا وخوفنا ولم نعد مستطيعين الاعتماد على الأشجار فى حملتنا ولم نعد مستطيعين الجلوس على فرع شجرة والضحك ساخرين من الحيوانات المفترسة على الأرض إذ كان أهل النار مفترسين نوى مخالب وأنياب طولها مائة قدم وكانت أشد الحيوانات المفترسة فظاعة فى ذلك العالم البدائى ذات صباح وقبل أن تتفرق القبيلة انتشر الدُمر بين حاملى الماء والذين كانوا قد ذهبوا الى النهر ليشربوا . وأسرعت القبيلة كلها الى الكهوف كانت هذه هى عادتنا فى مثل هذه الأوقات نسرع الى الكهوف ثم نفحص الأمر فيما بعد . وانتظرنا عند مداخل الكهوف وراقبنا وبعد

وقت خرج الى المكان المكشوف أخذ أهل النار في حذر كان ذلك هو الصياد العجوز الضامر وقف وقتاً طويلاً وهو يربقنا وينظر الى كهوفنا وسور الجرف - علوا وسفلا ونزل في أحد الدروب الموصلة للموردة ثم عاد على أعقابهِ وأخذ يعرج عائداً الى داخل الغابة تاركاً إيانا ونحن نتشاجر وتتاشكى بعضنا مع البعض الآخر من مداخل الكهوف .

## الفصل السادس عشر

وجدتها في الجدار القديم بالقرب من مستودع التوت الأزرق حيث كانت أمي تعيش وحيث كنت ومسترخي الأذن قد بنينا أول مأوى لنا فوق الشجر وقد جاء هذا على غير انتظار .

وإذ جئت تحت الشجرة سمعت الصوت الناعم المألوف وتطلعت إلى فوق كانت السريعة هناك جالسة على فرع الشجرة تزوجح ساقيةا إلى الوراء والأمام وهي تنظر إلى .

ووقفت ساكنا بعض الوقت فقد جعلتني رؤيتها سعيدا كل السعادة وعندئذ شعرت بقلق وألم يزحجان على هذه السعادة ينتقصان منها .

وأخذت أسلق الشجرة وراها وتراجعت إلى الوراء في بء وفي اللحظة التي وصلت إليها فيها قفزت في الهواء ونزلت على الشجرة المجاورة . وأطلت على من بين الأوراق وأخذت تصدر أصواتا خافتة . وقفزت نحوها قدما وبعد مطاردة مثيرة تكرر نفس الموقف إذ أصبحت في الشجرة الثالثة تصدر أصواتا خافته وتطل على من بين الأوراق .

وقد تذكرت أن هذا الوضع يختلف على نحو عما كان عليه الأمر في الأيام الخالية قبل أن أخرج أنا ومسترخي الأذن في رحلة مغامرتنا . فقد أصبحت أريدها وعرفت أنني أريدها وهي أيضا عرفت ذلك - لهذا لم تسمح لي بالدنو منها . ونسيت أنها هي حقا السريعة وأنها معلمتي في التسلق . وطاردتها من شجرة إلى أخرى وكانت دائما تزوج منى وتنظر إلي بعينين محبتين وتصدر أصواتا ناعمة وترقص وتتأرجح أمامي وهي بعيدة النال .

وكلما راوغتني زادت رغبتى فى اللحاق بها وشهدت ظلال بعد الظهر الطويلة  
بعد جوى ما أبدله من جهد .

وعندما كنت أطاردها أو أستريح أحيانا على شجرة مجاورة وأرقبها كنت  
ألاحظ ما طرأ عليها من تغيير أصبحت أكبر حجما وأثقل وزنا ونضجا وأصبحت  
خطوطها أكثر استدارة وعضلاتها أشد امتلاء . وكان فيها ذلك الشيء غير المحدد  
من النضج والجديد والذي ظل يحفزنى . كانت قد غابت ثلاثة أعوام على الأقل  
وأصبح التغيير فيها ملحوظا . أقول ثلاثة أعوام وذلك بقدر ما أستطيع قياس  
الزمن وربما يكون عام رابع قد أنصرم واختلط على أمر أحداته وتشابهت أحداته  
مع أحدات الأعوام الثلاثة الأخرى - وكلما ازدت تفكيراً فى هذا ازدت ثقة فى  
أنها لا بد أن تكون قد غابت أربعة أعوام .

ولا أعرف أين ذهبت ولا لماذا ذهبت ولا ما حدث لها فى غضون ذلك الوقت .  
ولم تكن لها وسيلة تستطيع بها إبلاغى كل ذلك كما لم تكن لى ولا لمسترخى الأذن  
وسيلة نستطيع بها إبلاغ القبيلة ما رأينا أثناء غيابنا والمحتمل هو أنها ربما تكون  
قد ذهبت مثلما ذهبنا نحن فى رحلة مغامرات وحدها ومن ناحية أخرى يحتمل أن  
يكون العين لتقى بها من حين لآخر وهى هائمة فى الغابات وإذا كان قد طاردها  
فلاشك فى أن هذا كان لإبعادها وأعتقد على ضوء الأحدات المتلاحقة أنها لا بد أن  
تكون قد مضت بعيدا نحو الجنوب وعبرت سلسلة من الجبال ونزلت إلى شواطئ  
نهر غريب بعيد عن أية جماعة من نوعها .

وكان الكثيرون من أهل الشجر يعيشون هناك ولا بد أن يكون هؤلاء هم الذين  
أعالوها أخيراً إلى القطيع وإلى . وسؤوضح الأسباب التى أستندت إليها فى ذلك  
الرأى فيما بعد .

واستطالت الظلال وازدت حماسا فى المطاردة ومع ذلك لم أستطع اللحاق بها  
وجعلتني أعتقد أنها تحاول الهرب منى متعمدة ذلك وعملت طول الوقت إبقانى  
أقرب ما أكون إليها مع بعدهه عن متناول يدي . ونسيت كل شيء من الزمن  
واقتراب الليل وأعدائى أكلة اللحوم .

وأصبحت مجنوناً بحبها وزاد الغضب من جنونى لأنها لم تسمح لى باللحاق

بها . ومن الغريب أن بدا لى أن هذا الغضب عليها كان جزءاً من رغبتى فيها .  
الثعابين لم تعوقنى . كنت مجنوناً وهاجمتنى ولكنى كنت أحنى رأسى وأزوع منها  
وأستمر فى الجرى ثم ظهر تين البر الذى إذا صادفتنى فى الأحوال العادية يدفعنى  
إلى الجرى صارخاً مستغيثاً إلى قمة شجرة ولكن لم يدفعنى هذه المرة إلى  
شجرته فالسريعة قد أختفت عن نظارى وفرت إلى الأرض ومضيت فى طريقي .

وكانت الأرض مغطاة بعشب قصير ثم رأيت الضبع عدوى القديم وأدرك من  
سلوكى أن شيئاً ما سيحدثه بالتاكيد وظل يتبعنى ساعة كاملة . وفى ذات مرة  
رأينا قطعياً من الخنازير البرية فأخذت فى مطاردتنا وقفزت السريعة قفزة واسعة  
جريئة بين الأشجار وكانت هذه القفزة أكثر مما أستطيعه أنا واضطرتت إلى  
التزول إلى الأرض حيث الخنازير ولم أعبأ بها .

وضربت الأرض على بعد ياردة من أقرب خنزير وأحاطت الخنازير من  
الجانبين وأنا أجرى ومطاردتني إلى شجرتين مختلفتين بعيدا عن مسارى فى  
مطاردة وعدت إلى الأرض ثانية وعدت إلى الوراء وعبرت مكانا مكشوفاً والقطيع  
لكه غاضب صاحب كاشف عن أنيابه فى أعقابى .

ولما تعثرت فى ذلك المكشوف فقدت الأمل ولكنى لم أتعثر ولم يكن يعيننى أن  
أتعثر أولاً أتعثر فقد كنت فى حالة أستطيع فيها مواجهة سن السيف نفسه أو  
عشرة من أهل النار الذين يضربون بالسهام . هكذا كان جنون الحب عندي .

أما عند السريعة فقد بدا الأمر مختلفاً عن ذلك كانت حكيمة غاية الحكمة فلم  
تخاطر أية مخاطرة حقيقية وأذكر وأنا أسترجع عبر القرون نكرى تلك المطاردة  
الغرامية أنه عندما كانت الخنازير تعوقنى لم تسرع فى الجرى بل أنتظرت  
استئناف المطاردة من جديد كما أنها كانت توجهنى دائماً فى الاتجاه الذى تريده .  
وأخيراً حل الظلام وقادتني حول كتف سور واد يغطيه الطحلل وهو بارز بين  
الأشجار وبعد ذلك توغلنا فى مجموعة كثيفة من الشجيرات النامية تحت الأشجار  
الكبيرة وكانت تخدشني وتمزق جلدى أثناء مرورى بينها .

أما هى فلم تتحرك فيها شعرة إذ كانت تعرف الطريق وكانت شجرة سنديان  
ضخمة تتوسط الأجمة وأصبحت قريباً منها غاية القرب عندما تسلقت الشجرة  
وین الفروع وفى العش الذى بحثت عنه عبثاً فترة طويلة لحقت بها .

وكان الضبع قد عاد يتبع أثرنا وأخيرا جلس على الأرض تحت الشجرة وأخذ يعوى عواء الجوع ولكننا لم نعبأ به بل ضحكنا منه عندما كشر عن أنيابه ومضى بعيدا خلال الأجمة . وكان الوقت ربيعا وضوضاء الليل عديدة ومتنوعة . وكان هناك قتال كبير بين الحيوانات كما هي العادة خلال ذلك الفصل من فصول السنة . واستطعنا أن نسمع من عشنا سهيل الجياد البرية وصياح القيلة وزئير الأسود . ولكن برز القمر وكان الهواء دافئا وضحكنا وزال عنا الخوف .

وأذكر أننا فى الصباح عثرنا على طائرين مطوقين يتقاتلان بحمية إلى درجة أنى ذهب إليهما وأمسكت عنقيهما . وهكذا حصلنا أنا والسريعة على إقطار زفافنا .

كانا لذيذين . كان سهلا اصطياذ الطيور فى فصل الربيع وقد حدث ذات ليلة من ذلك العام أن أقتتل اثنتان من الأيائل فى ضوء القمر وكنت أنا والسريعة نرقب هذا من فوق الشجرة فأبينا أسدا وليوة يزحفان نحوهما دون أن يلتفتا المتقاتلان إليهما ثم يقتلانهما أثناء قتالهما .

وليس هناك من سبيل لمعرفة كم من الوقت قضينا فى بيت السرعة فوق الشجرة . ولكن حدث ذات يوم أن كنا بعيدين عنه حين أصابت الشجرة صاعقة أحرقت فروعها الكبيرة وهدمت البيت . وأخذت أعيد بناءه ولكن السرعة رفضت البقاء فيه .

وعلمت فيما بعد أنها كانت تخشى الصواعق كثيرا ولم أستطع إقناعها بالعودة إلى تلك الشجرة . وهكذا ذهبتا بعد انقضاء شهر العسل إلى الكهوف لتقيم فيها . وكما طردنى مسترخى الأذن من الكهف حين تزوج طروته الآن واستقر بنا أنا والسريعة المقام فى الكهف فكان ليلا فى المر الموصل بين جزئى الكهف المزبوج .

ومع عودتنا للإقامة مع القبيلة جاءت المتاعب . وكان العين الحمراء قد تزوج عدة زوجات بعد الغنية ولا أدرى كيف تم ذلك ولابد أنها ذهبت فى الطريق الذى ذهبت فيه الأخريات .

أما الآن فقد كانت معه زوجة صغيرة ناعمة بليدة لاتكف عن البكاء وقيل أن

تموت استقرت أنظار العين الحمراء على السرعة . وبعد أن ماتت زوجته بدأت مضايقاته للسرعية .

ومن حسن حظها أنها كانت السرعة وأن لها تلك القدرة العجيبة على الطيران السريع بين الأشجار . وكانت فى حاجة إلى استخدام كل ماديها من حكمة وجراحة - للابتعاد عن قبضة العين الحمراء . ولم يكن فى استطاعتى أن أساعدها فقد كان شديد القوة إلى حد أنه كان مستطيعا أن يمزق أعضائى .

فقد ظللت حتى آخر حياتى بكتف مصابة تؤلنى وساق تعرج فى الجو المطير وذلك كآثر من آثار عنفه .

وكانت السرعة مريضة فى الوقت الذى أصيب فيه هذه الإصابة ولابد أنها كانت بها الملاريا التى كنا نعانينا أحيانا ولكن كاننا ما كان مرضها فإنها جعلها كثيبة ثقيلة الحركة ولم تعد فى عضلاتها قدرتها المعهودة على لقفز ولم تعد فى حال تسمح لها بالمقاومة حين حاصرها العين الحمراء فى ركن قريب من وجار الكلاب البرية على بعد عدة أميال من الكهوف وكان من الممكن أن تنور حوله وتضربه على الفور حتى تصل إلى كهفنا ذى المدخل الضيق فتصبح فى أمان ولكنها لم تستطع الدوران حوله إذ كانت بطيئة بليدة وفى كل مرة كان يضيق الحصار حتى كفت عن المحاولة وكرست كل جهدها فى البقاء بعيدا عن قبضة يده .

ولو لم تكن مريضة لكان إفلاتها منه بالنسبة لها لعب أطفال ولكن الأمر تطلب كل ما فيها من حذر ومكر وقد ساعدها أنها كانت أكثر منه استطاعه السير فوق فروع الشجر الأقل سمكا كما أنها كانت تفوقه فى اتساع القفزة كما أن حكمها على المسافات لم يكن يخطئ وأن غريزتها تدلها على قوة أطراف الأغصان والقروح الفاسدة .

وظلت المطاردة مستمرة بغير توقف فاندفعنا بدوران وبدوران ويعودان إلى الوراء . وبمضيان إلى الأمام فترات طويلة خلال الغابة . وأشدت انفعال القبيلة وجلسوا يثرثرون ثرثرة شديدة وكان صوت هذه يعلو إذا ما ابتعد العين الحمراء ويخفت إذا أدنته المطاردة منهم .

كانوا متفرجين عاجزين . وصرخت الأناث وتمتمن أما الذكور فقد ضربوا - صدورهم في غضب عاجز . وكان نو الوجه الكبير أشدهم غضبا وأن كان يحدث ضوضاء عندما يقترب العين الحمراء إلا أنه لم يخفقه إلى الحد الذي كان الآخرون يصلون إليه في خفض ضوضائهم .

أما أنا فإني لم أقم بأى عمل جرى، وكنت أعرف أنني قد أكون أى شئ، إلا أن أكون بطلا . وفضلا عن ذلك فماذا يعود علي لو إني واجهت العين الحمراء ؟ كان ماردا جبارا ووحشا أشد ما تكون الوحشية والأمل لي في صراع قوة كان يقتلني ويبقى الموقف نون تغيير ويمسك السريعة قبل أن تصل إلى الكهف ولم أستطع أن أفعل أكثر من النظر إليهما في غضب العاجز وأن أبتعد من طريقه وأكف عن هياجي عندما يزداد قربا .

ومرت الساعات وأصبح الوقت متأخرا بعد ظهر ذلك اليوم ومع ذلك فقد استمرت - المطاردة وكان العين الحمراء عاكفا على إجهاد السريعة وتعهد إيقاعها تجرى وبعد انقضاء وقت طويل بدأت تتعب ولم تعد مستطية الاستمرار في الجرى وعندئذ أخذت تتوغل بعيدا فوق فروع الشجر الدقيقة حيث لا يستطيع أن يتبعها وحيث تستطيع التقاط أنفاسها ولكن العين الحمراء كان شيطانا إذ عندما عجز عن متابعتها حاول أن يوقفها بهز أطراف الشجرة فاستجمع كل قوته ونقله وأخذ يهز فرع الشجرة إلى الورا، وإلى الأمام حتى أوقفها كما يوقع المرء نيابة من طرف عصا رخوة يهزها . فالتقت نفسها بالسقوط على فروع تحت الفرع الذي وقعت منه وبعد ذلك لم تتقن هذا الفروع من الوقوع على الأرض ولكنها خفتت من هذا الوقوع إذ وقعت على فرع آخر ومنه إلى الأرض ولكنها سرعان ما سعدت شجرة أخرى . وفعل بالفرع الذي نزلت عليه ما فعله بالفرع الذي كانت عليه بالشجرة الأخرى ولكنها لم تسقط على الأرض بل دفعتها هزة الشجرة إلى شجرة أخرى وما كانت لتتشد الأمان بالالتجاء إلى فروع الأشجار الدقيقة إلا إذا اضطرت إلى ذلك اضطرابا ولكن التعب بلغ منها مبلغا جعل هذه الفروع الدقيقة الوسيلة الوحيدة لتحاшибه فلاجت مرة بعد أخرى لتلك الفروع .

ومع ذلك استمرت المطاردة واستمر صراخ القبيلة وضربهم صدورهم

وضغطهم على أسنانهم ثم جاءت النهاية . وكان قد حل الغسق وتعلقت السريعة بفرع شجرة دقيق عال وهي - ترتعد وتلثت محاولة أنفاسها بصورة تدعو للرتاء .

وكان هذا الفرع على ارتفاع ثلاثين قدما من الأرض وليس بينه وبين الأرض حاجز وأخذ العين الحمراء يتأرجح إلى الأمام وإلى الورا على نفس فرع الشجرة عند جزئه السميك . وأصبح فرع الشجرة كالبندول تزداد أرجحته اتساعا مع كل ضغط من ثقله ثم عكس حركته وأفلتت أصابعها من الفرع وتكومت وهي تضرخ أثناء سقوطها .

ولكنها عدلت وضعها وهي في الهواء فنزلت بقدميها على الأرض ولو كانت في حالتها العادية وسقطت من مثل هذا الارتفاع الشاهق لخفت عضلات ساقيها قوة الاصطدام بالأرض ولكنها كانت منهكة القوى ولم تستطع استخدام عضلات ساقها بل أنهما لم تستطعا حملها بعد أن تحملتا بعض أثر الصدمة فوقعت على جنبها ولم يؤلها هذا إلا أنه بهر أنفاسها ورقدت بلا حول أو قوة تجاهد هواء تستنشقه .

واندفع العين الحمراء نحوها وأمسكها وديس أصابعه المعقدة في شعر رأسها ولفه على تلك الأصابع ووقف يآر زئير الانتصار والتحدى لأولئك القوم الذين يرقبونهم من فوق الأشجار وعندئذ جن جنوني وألقيت بالحذر جانبا ولم تعد لي أية إرادة للحياة .

وبينما كان العين الحمراء يزار قفزت عليه من وراء ظهره وكان هجومي مفاجئا إلى حد أنى أستطعت إيقاعه على الأرض ولففت ذراعي وساقى حوله وعملت على إبقائه طريحا على الأرض . وكان من المستحيل أن أنجح في هذا لو لم يكن قد شبك يده في شعر السريعة .

وشجع سلوكي ذا الوجه الكبير فجاء لنصرتي على حين فجأة وهجم على العين الحمراء وغاصت أسنانه في ذراعه وأخذ يخدش ويمزق وجهه كان هذا هو أوان انضمام القبيلة للمعركة . وكانت فرصة لتلقي العين الحمراء درسا لا ينساه ولكنها ظلوا مخفيين في الأشجار .

وكان لابد من انتصار العين الحمراء في معركة ضدنا نحن الأثنين ولكن يرجع سبب ذلك إلى عدم إجهازه علينا فورا إلى أن السريعة عطلت حركته . استعادت أنفاسها وبدأت - تقاوم ولم يشأ أن يخلى شعرها من قبضته مما عوقه . وأمسك ذراعي بقوة فكان هذا بداية النهاية بالنسبة لي . وأخذ يجرنى إلى وضع يستطيع معه أن يغرس أسنانه في عنقي وكان فمه مفتوحا وهو يبتسم ويسبب تلك الحركة التي انتزعت كتفي على نحو ظلت - أعانى منه بقية حياتي .

وفي تلك اللحظة وقع جسم كبير علينا نحن الأربعة ونحن متماسكون بدون إنذار وافترقنا بعضنا عن البعض الآخر بعنف وأخذنا نندرج متباعدين أكثر فاكثُر . وقد أخلى كل منا سبيل الآخر تحت تأثير المفاجأة . وفي لحظة الذهول صاح نو الوجه الكبير صيحة هائلة ولم أعرف ماذا حدث وأن كنت قد شممت رائحة نمر ولحت الفراء المخطط وأنا أقفز نحو شجرة .

كان هذا هو سن السيف أثارته في عريته الضوضاء الصادرة عنا فزحف علينا دون أن نلاحظه ووصلت السريعة إلى الشجرة المجاورة لشجرتي ولحقت بها على الفور وأحطتها بذراعي وضممتها إلى وهي تبكي بصوت خافت .

وجاءنا من الأرض صوت زمجرة وقضم عظام . كان سن السيف يتناول عشاءه مما كان من قبل ذا الوجه الكبير . وكان العين الحمراء يطل عليه من ورائه بعينين محمرة الأطراف . هنا مراد أشد منه قوة واسترنا أنا والسريعة ومضينا بعيدا في هدوء عبر الأشجار نحو الكهف بينما كانت القبيلة متجمعة فوقنا تمطر عدوتها بالسباب وأطراف فروع الأشجار والأغصان .. وهز العدو ذيله وزمجر ولكنه استمر بكل .

وعلى هذا النحو تم إنقاذنا . وكانت مجرد مصادفة عابرة والإلت في قبضة العين الحمراء ولما كان هنالك جسر الزمن عبر آلاف القرون إلى سليل يقرأ الصحف ويركب مركبات الكهراء - بل ويكتب قصصا عن الأحداث الماضية كما يكتب هذه القصة .

## الفصل السابع عشر

حدث في اوائل فصل الخريف من العام التالي بعد أن فشل العين الحمراء في الحصول على السريعة أن اتخذ له زوجة أخرى ومن العيب أن ننكر أنها لاتزال حية . والأغرب من هذا أنهم رزقا مولودا بلغ عمره عدة أشهر هو أول أبناء العين الحمراء . فزوجاته السابقات لم يعشن حتى ينجبن له أبناء . ومر العام بخير علينا جميعاً . فقد كان الطقس معتدلاً بصورة غير مالوفة كما كان الطعام وفيراً . وأذكر بصفة خاصة ثمار اللفت في ذلك العام كما كان محصول البندق غزيراً جداً والبرقوق أكبر حجماً وأكثر حلوة مما كان عليه عادة .

وكان ذلك العام باختصار عاماً ذهبياً . وعندئذ حدث هذا الأمر كان الوقت في الصباح المبكر واندھشنا في كهوفنا واستيقظنا من نومنا في الضوء الأشهب البارد أو استيقظ - أغلبنا لمواجهة الموت . فقد أيقظنا أنا والسريعة ضجيج صراخ وتمتمة وكان كهفنا أعلى الكهوف فوق الجرف وزحفنا إلى باب الكهف وأطللنا كانت الأرض الحمراء قد امتلأت بأهل النار وزادت صيحاتهم وصرخاتهم من الضجة ولكنهم كانوا نوى نظام وخطة بينما لم يكن لنا نحن شيء من هذين وكل منا يقاتل وحده ويعمل بنفسه ولم يعرف أحدنا مدى الكارثة التي حلت بنا .

وبها بلغنا مرحلة قذف الحجارة كان أهل النار قد جمعوا أنفسهم عند قاعدة الجرف ولا بد أن تكون أول مجموعة من الحجارة قذفناها قد حطمت بعض الروس لانهم عندما تراجعوا عن الجرف تركوا ثلاثة منهم على الأرض . وظل هؤلاء الثلاثة يكافحون ويتخطون واحدهم يحاول الابتعاد زاحفاً ولكننا ثبتناهم وفي هذا الوقت كنا نحن الذكور نزار غضباً وأمطرنا الرجال الثلاثة الذين كانوا تحت الجرف

بالحجارة. وعاد بعض رجال النار لجرهم الى حيث الأمان ولكن حجارتنا ردت المنقذين إلى الوراء.

وغضب أهل النار وأصبحوا حزينين كذلك وبالرغم من صيحاتهم الغاضبة ظلوا على بعد مسافة وأطلقوا علينا وإبلاً من السهام وأوقفت السهام قذف الحجارة. وفي الوقت الذي قتل فيه ستة منا وأصيب عشرة بجراح تراجع بقيتنا إلى داخل كهوفنا ولم أكن بعيداً عن رمى السهام في كهفي العالى ولكن المسافة كانت كبيرة لدرجة تكفى لإفساد فاعلية السهام ولم يضع أهل النار سهامهم بتصويبها نحوى وأردت أن أرى يدافع من فضولى وبقيت السريعة فى داخل الكهف ترتعد خوفاً وتبكي بكاء خافتاً لأنى لم أشأ الدخول وقبعت عند المدخل وأخذت أرقب.

وأصبح القتال الآن متقطعاً ونحن فى الكهوف والسؤال الذى يواجهه أهل النار هو كيف يخرجوننا من الكهوف ولم يجرؤوا على مطاردتنا أما نحن بصفة عامة فما كنا نعرض أنفسنا لسهامهم. ومن حين لآخر يضرب أحدهم أطراف الجرف فيقذف واحد أو آخر من القبيلة حجراً عليه ويتعرض ببوره لأن تترشق فيه ستة أو عشرة سهام واستمرت هذه الطريقة بعض الوقت ولكن القبيلة لم تعد تتخضع أو يغير بها لتعرض نفسها. فتم التوقف تماماً.

ورأيت بين أهل النار الصياد العجوز النحيل الصغير وهو يوجه القتال كله وهم طبعونه ويذهيون هنا وهناك تنفيذاً لأوامره. وذهب بعضهم إلى داخل الغابة وعاد بأحمال من الخشب والأوراق والاعشاب الجافة. واقترب جميع أهل النار بينما وقف أغلبهم مشرعين القسى والسهام مستعدين لاطلاقها على أى واحد من القبيلة يعرض نفسه لها. وكوم عدد كبير من أهل النار العشب الجاف والخشب عند أبواب الطبقة الأولى من الكهوف. ومن هذه الأكوام أطلقوا النار الجبار الذى نخشاه وهو «النار». وارتفعت سحب الدخان فى أول الأمر وتكورت صاعدة الجرف. ثم رأيت أسنة اللهب الحمراء تبتثق خارجة من الحطب الرقيق الذى يشبه الحبات داخلة فيه. وأخذ الدخان يزداد كثافة شيئاً فشيئاً وهو يغلف واجهة الجرف كلها أحياناً. ولكنى كنت عالياً جداً فلم يزعجنى كثيراً وأن ألم عيني فمستحتها بمفاصل أصابعي.

وكان عظم النخاع العجوز أول من أخرجه الدخان من كهفه. وهبت نسمة هواء

خفيفة أبعدت الدخان وقتنذ بحيث استطعت أن أرى بوضوح. خرج وسط الدخان وخطا فوق فحم ملتهب وصاح بسبب الألم المفاجئ الذى أحسه فى قدميه وحاول أن يرتقى الجرف وانهالت السهام عليه وتوقف على طرف وأمسك نتوءاً صخرياً يستند إليه ولهث وعطش وهز رأسه وأخذ يترنح إلى الوراء وإلى الامام وكانت أطراف السهام المريشة تبرز من جسده كان عجوزاً ولم يرد أن يموت وزاد اتساع تآرجحه وضغفت ركبته عن حمله وولول شاكياً وانفجرت أصابعه عن قبضتها على النتوء الصخرى واشتد ميله إلى الخارج وسقط على الأرض ولا بد أن تكون عظامه قد تكسرت بصورة محزنة وتوهو وبذل جهداً ضعيفاً للتهوض ولكن أحد أهل النار اندفع إليه وهجم عليه وضربه على أم رأسه بعضاً فأخرج منها مخه.

وحدث للكثيرين من أعضاء القبيلة ما حدث لعظم النخاع إذ عجزوا عن تحمل الاختناق بالدخان واندفعوا خارجين من كهوفهم وأصابتهم السهام وسقطوا على الأرض وبقي بعض النساء والأطفال داخل الكهوف وماتوا اختناقاً ولكن أغليبيتهم لقوا حتفهم خارج الكهوف.

وعندما اخلى أهل النار بهذه الوسيلة الصف الأول من الكهوف أخذوا يعدون عدتهم لمضاعفة قوة العملية حتى تؤثر على كهوف الصف الثانى نفس التأثير. وبينما كانوا يتسلقون بأعشابهم وحطبهم نجح العين الحمراء بتبعه زوجته والطفل ممسك بهما بقوة فى الهرب صاعداً للجرف ولا بد أن يكون أهل النار قد استنتجوا أننا سنبتقى فى الكهوف فى الفترة التى توقف فيها تصاعد الدخان ولهذا لم يكونوا مستعدين ولم تبدأ سهامهم فى الانطلاق إلا بعد أن كان العين الحمراء وزوجته قد أصبحا فى قمة الجرف. وعندما وصل إلى القمة استدار ونظر إليهم وأخذ يزار وهو يديق صدره بيده. وصوبوا قسيهم وسهامهم إليه وأطلقوا السهام نحوه. ولم تصبه السهام وهرب.

ورأيت طبقة ثالثة من الكهوف والدخان يوجه إليها ويخرج أهلها منها ثم طبقة رابعة وهرب القليلون من أعضاء القبيلة صاعدين الجرف أما أغلبهم فقد أصابتهم السهام وأسقطتهم من واجهة الجرف اثناء محاولتهم الصعود. وأذكر ذا الشفة الطويلة. إذ مضى صاعداً حتى بلغ طرف الجرف الذى كنت عليه فاخترق صدره

سهم جعله يصرخ بصوت شير الرثاء وكانت مؤخرة السهم المربشة بارزة من ظهره بينما نصله وهو من العظم برز من صدره ووقع أمامي على الطنف والدّم يزف من فمه بغزارة.

وفي هذا الوقت أخذت الطبقات العليا من الكهوف تخلو من أهلها في وقت واحد وأسرع جميع أعضاء القبيلة تقريباً ممن لم يخرجوا الدخان من كهوفهم أسرعوا يصعدون الجرف متدافعين في وقت واحد. وانفذ هذا العميل الكثيرين. إذ لم يستطع أهل النار أن يطلقوا من السهام ما يكفي لقتلهم جميعاً. وملاؤ الجو سهاماً وسقط العشرات من أعضاء القبيلة الذين أصابتهم السهام ومع ذلك فقد وصل البعض إلى القمة وهربوا.

وأصبح دافعي إلى الهرب الآن أقوى من دافع الفضول. وكفت السهام عن الانطلاق وبدا أن آخر أعضاء القبيلة قد نهب وإن كان من المحتمل وجود القليلين مختبئين في الكهوف العليا. ومضينا أنا والسريعة تتسلق الجرف نحو قمته. ولما رأنا أهل النار صاحوا صيحة عالية ولم أكن أنا سبب هذه الصيحة بل كانت السريعة سببها. وأخذوا يشرثون في انفعال وهم يشيرون إليها. ولم يحاولوا إطلاق السهام نحوها فلم يطلقوا سهاماً واحداً وأخذوا ينادون بصوت خافت ملاطفين. وبققت ونظرت إليهم وكانت هي خائفة ويكت وحتثني على المضى وهكذا مضينا صعداً وتجاوزنا القمة ودخلنا بين الأشجار.

وكثيراً ما حملني هذا الحادث على التساؤل والتكهن. لو أنها حقاً من النوع الذي ينتمون إليه فلا بد أنها سبق أن تاهت منهم وهي صغيرة إلى حد لا يسمح لها بتذكر ما وقع وإلا لما خافت منهم ومن ناحية أخرى فقد تكون من نوعهم ولا تكون قد تاهت منهم بل تكون قد ولدت في الغابة بعيداً عن مساكنهم وربما أبوها منهم وخرج عليهم وأما من نوعي أنا. من يدرى؟ أن هذه الأمور تفوق إدراكي ولم تكن السريعة لتعرف عنهم أكثر مما أعرف أنا.

وعشنا يوم رعب. وهرب أغلب الباقين إلى مستنقع التوت الأزرق وأوى إلى الغابة التي بجواره. وظلت جماعات من أهل النار تطاردنا في الغابة يقتلوننا حيثما وجدونا. ولابد أنها حطت نفثت بامعان. قرروا بها غزونا متجاوزين حدود

أراضيهم. أسف لتعبير الغزوا! فلم تكن لنا أية قدرة على مقاومتهم. كانت مذبحه. مذبحه لا تميز بين ضحية وضحية أخرى لأنهم لم يتركوا أحداً فكانوا يقتلون الكبير والصغير ويطهرون الأرض منا بصورة فعالة.

كان الأمر بالنسبة لنا نهاية العالم. وهربنا إلى الأشجار كأخر ملجأ لنا ليحيطوا بنا ويقتلوننا أسرة أسرة. وشهدنا الكثير من هذا ذلك اليوم ولم نبق أنا والسريعة طويلاً في شجرة واحدة وهكذا أفلتنا من الاحاطة بنا. ولكن لم يبد هنالك مكان نذهب إليه.

فأهل النار في كل مكان منهمكون في إنجاز عملية الإقناء وحيثما ذهبنا وجدناهم ولهذا السبب رأينا الكثير من أعمالهم.

ولم أر ما حل بأمي ولكني رأيت الترتار يصيبه سهم فيسقطه من الشجرة القديمة التي كان فيها مقامنا وحين رأيت هذا المنظر قمت بالتراجع فرحاً. وقبل أن أترك هذا الجزء من روايتي لابد أن أحكى ما حدث للعين الحمراء. حوصر هو وزوجته في شجرة بجوار مستنقع التوت الأزرق. ووقفت أنا والسريعة طويلاً لنرى. وكان أهل النار منهمكين في عملهم على نحو لم يسمح لهم بملاحظتنا وفضلاً عن ذلك فقد كنا مختبئين تماماً في الأجمة حيث قيعنا.

وكان هناك عشرة من الصائدين تحت الشجرة يطلقون السهام داخلها وكانوا دائماً يلقتون سهامهم عندما ترتد إلى الأرض. ولم أستطع أن أرى العين الحمراء ولكني سمعته يعول من مكان ما بالشجرة. وبعد فترة قصيرة أصبح عويله مكتوماً ولابد أن يكون قد زحف إلى فجوة في جذع الشجرة ولكن زوجته لم تتل مثل هذا الملجأ فاصابها السهم وأسقطها على الأرض وكانت إصاباتها شديدة لأنها لم تبذل أي جهد للهرب. وانحنت على طفلها (المتعلق بها جيداً) تحميه وأخذت تتوسل بالإشارات والأصوات إلى أهل النار. وتجمعوا حولها وضحكوا منها كما ضحكنا أنا ومستترخي الأذن من رجل الشجرة العجوز بل وكما كنا ننخسه بالعصى وأطراف الأغصان كذلك فعل أهل النار بزوجة العين الحمراء نخسوها بأطراف قسيهم ووخزوها في أضلاعها. ولكنها لم تشعب مرجهم لأنها لم تناضل بل ولم تغضب واستمرت منحنية فوق طفلها وهي تتوسل اقرب منها واحد



من أهل النار ويده عصا ورأت وفهمته ولكنها ظلت تصدر أصوات التوسل حتى هوت الضربة على رأسها .

وكان العين الحمراء فى تجويف جذع الشجرة فى أمان من سهامهم وتجمعوا وتبادلوا النقاش بعض الوقت ثم تسلق أحدهم الشجرة ولم استطع أن أعرف ما حدث فوق الشجرة ولكنى سمعته يصيح ورأيت ابتهاج الذين ظلوا تحت الشجرة وبعد عدة دقائق سقط جسده على الأرض ولم يتحرك ونظروا إليه ورفعوا رأسه ولكنها سقطت خدرة عندما أفلتوها كان العين الحمراء قد أوضح الأمر نفسه .

وكانوا غاضبين أشد الغضب . ولم تكن هناك فتحة فى جذع الشجرة قريباً من الأرض وجمعوا حطباً جافاً وأشعلوا النار وانتظروا أنا والسريعة وقد أحاط كلانا الآخر بذراعيه فى الأجمة وراقبنا وكانوا أحياناً يلقون على النار فروعاً خضراء ذات أوراق كثيرة فكان الدخان المتصاعد منها يزداد كثافة .

ورأيناهم متراجعين عن الشجرة فجأة ولكنهم لم يكونوا مسرعين السرعة الواجبة . وقفز العين الحمراء وهبط وسطهم وكان هانجاً هيجاناً مخيفاً يضرب بذراعيه الطويلتين يمنة ويسره وانتزع وجه أحدهم فعلاً من بين كتفيه بأصابعه المعقدة ويعضلاته الهائلة وعض عنق آخر فهشمها وتراجع أهل النار وهم يتصايحون صيحات وحشية عنيفة ثم اندفعوا نحوه . فأمسك عصا وأخذ يحطم بها الروس وكانها قشر بيض وكان أقوى من أن ينتظروا عليه واضطروا إلى التراجع ثانية وكانت هذه هى فرصته فادار لهم ظهره وأسرع بجرى وهو يعوى غاضباً وأسرعت . وراه بعض السهام ولكنه كان قد اختفى فى أجمة .

وزحفنا أنا والسريعة بهدوء مبتعدين ولكنها صادفنا أنى جماعة أخرى من رجال النار وطاربونا حتى دخلنا مستنقع التوت الأزرق ولكنها كنا نعرف طرق الأشجار وراء الأرض الموحلة حيث لا يستطيعون مطاردتنا على الأرض وهكذا هربنا . وخرجنا من الطرف الآخر الى شريط ضيق من الغابة يفصل مستنقع الأزرق عن المستنقع الكبير الممتد غربا وهنا التقينا بمسترخى الانز ولا أستطيع أن أتصور كيف نجا الا أن يكون قد نام الليلة الماضية فى الكهوف .

وكان من الممكن أن نبني بيوتنا لنا على الشجر فى هذا الشريط من الغابة

ونستقر لولا قيام أهل النار بعملية الإبادة التامة وبعد الظهر هرب ذو الوجه المشعر وزوجته من بين الأشجار شرقاً ومرا بنا ونهبا لسانهما هرباً فى صمت وسرعة وملامح وجهيهما تنطق بالخوف وسمعنا صيحات وصراخ الصائدين آتية من الناحية التى جاء منها كما سمعنا فى هذه الناحية أيضاً صراخ أحد القوم . كان أهل النار قد وجدوا طريقهم عبر المستنقع .

ومضينا أنا والسريعة ومسترخى الأذن فى أعقاب ذى الوجه المشعر وزوجته وعندما بلغنا حافة المستنقع الكبير وقفنا إذ لم تكن نعرف طريقه فقد كان خارج أرضنا وكانت القبيلة تتحاشاه . دائماً لم يسبق لأحد دخوله أو العودة منه على الأقل إذا هو دخله وكان يمثل فى أذهننا الغموض والخوف . والمجهول المثير للربح ووقفنا عند حافته ونحن خائفين واقتربت صيحات أهل النار ونظر كل منا الى الآخرين وجرى ذو الوجه المشعر فوق الوحل المهتز حتى بلغ بقعة أرض أكثر صلابة وغطىها العشب الذى يصلح أن يكون مخبئاً على بعد عشر ياردات ولم تتبعه زوجته . لقد حاولت ولكنها إنكسرت اذ خافت السطح الخداع وتكورت .

ولم تنتظرنى السريعة ولم تتوقف فى سيرها حتى جاوزت مكان ذى الوجه المشعر بيانة ياردة ووجدت مخبئاً وفى الوقت الذى لحقت بها فيه أنا ومسترخى الأذن ظهر أهل النار بين الأشجار فاندفعت زوجة ذى الوجه المشعر ورائها بعد ظهورهم بفرع الداعر . ولكنها كانت تجرى على غير هدى وبيدون حذر فتهشم تحت قدميها غشاء سطح المستنقع واستدرنا وراقبنا ورأيناهم يصيبنونها بالسهام وهى تقوص فى الوحل . وأخذت السهام تتساقط حولنا . وكان ذو الوجه المشعر قد لحق بنا ومضينا نحن الأربعة دون أن نعلم الى أين نحن ماضون وازددنا تعمقا فى المستنقع أكثر فأكثر .

المنخفضة حتى شاطئ النهر . والنهر نهرنا يخرج متلما خرجنا من المستنقع .  
ووجدنا على الشاطئ الجنوبي حيث شق النهر طريقه في التلال عدة كهوف في  
الحجر الرملي ومن وراء ذلك كان المحيط يهدر عند ملتقى مائه بماء النهر عند  
مصبه وهنا استقر بنا المقام في الكهوف مقرنا الدائم بجوار البحر .

ولم تكن كثيرين ومع مرور الزمن أخذت جماعات متزايدة من أهل القبيلة تظهر  
من وقت لآخر وقد جروا أنفسهم من المستنقعات قرادى أو اثنين أو ثلاثة وهم  
أقرب الى الموت منهم الى الحياة مجرد هياكل هائمة حتى أصبحنا أخيرا ثلاثين  
شخصا ولم يعد أحد يأتى من المستنقع ، ولم يكن العين الحمراء بيننا ولوخط انه  
لم يبق على قيد الحياة أحد من الأطفال بعد تلك الرحلة الخفيفة .

ولن أتحدث بالتفصيل عن السنوات التي عشناها بجوار البحر ولم يكن المقر  
سعيدا فالهواء بارد رطب ولم تكف عن السعال ونزلات البرد ولم نستطع العيش  
في مثل هذه البيئة . صحيح أننا رزقنا أبناء ولكنهم لم يعيشوا طويلا بل كانوا  
يموتون مبكرين وأخذنا نموت بسرعة تفوق السرعة التي يولد بها الجدد وتناقص  
عددا تناقصا مستمرا .

وعندئذ لم يكن التغيير الجوهرى في طعامنا مفيدا لا وأصبحنا نعيش على  
القليل من الخضر والفككة وأصبحنا كذلك من أكلة السمك . وكانت هناك أسماك  
بلح البحر وهو نوع من المحار وأذن البحر وهو الحلزون البحرى واللزيق وهو  
السماك الصدفى والجندفلى وأبو جلمبو الكبير الذى يقذفه المحيط على الشاطئ  
فى الجو العاصف . كما كنا نجد عدة أنواع من الأعشاب البحرية التى تصلح  
للطعام ولكن تغيير الطعام سبب لنا متاعب فى المعدة ولم يعرف أحدنا طريقا  
للبدانة كنا جميعا نحفاء . وقد فقد مسترخى الانز حياتة بسبب حلزون بحرى  
فقد أطبق هذا الحلزون البحرى على أصابعه اثناء الجزر ثم جاء المد وأغرقه  
ووجدنا جثته فى الصباح التالى فكانت وفاته درسا لنا فلم يطبق الحلزون على يد  
أحدنا بعد ذلك .

واستطعنا أنا والسريعة أن نربى طفلا ولدا واستطعنا على الأقل أن نربيه  
حتى بلغ من العمر عدة سنوات ولكنى وأثو من أنه ماكان مستطعيا ان يبقى حيا  
فى ذلك المناخ الريحى . وفى ذات يوم ظهر أهل النار ثانية وكانوا قد جاؤا عبر  
النهر لا على طوف بل فى قارب محفور فى جذع شجرة وكانوا ثلاثة يجدفون فيه

## الفصل الثامن عشر

ومعلوماتى عن تجولنا فى المستنقع الكبير غير واضحة . وعندما أستعيد  
الذكري أجد الكثير من الانطباعات التى لا علاقة بين بعضها والبعض الآخر ولا  
أجد لقيمة الزمن وجودا وليست لدى أية فكرة عن مدى الوقت الذى قضيناه فى  
أرض المستنقع الفسيحة . وتتخذ ذكرياتى عما حدث شكل الكابوس دائما . وأدرك  
أنى ظلت أزمانا لا حصر لها يطاردنى خوف متغير الاشكال ويدفعنى الى التيه  
الذى لا آخر له فى بدياء مظلمة أرضها مشبعة بالماء حيث تهاجمنا التعابين  
السامة وتزأر الحيوانات حولنا والطمى يهتز تحت أقدامنا ويمتص أعقابنا .

وأعرف أننا انحرقنا عن مسارنا مرات لا حصر لها بسبب الغدران والبحيرات  
والبحار والأودية . ثم هناك العواصف وارتفع الماء فوق مناطق شاسعة من  
الأراضى المنخفضة هناك فترات جوع وشقاء حين يحاصرنا ماء هذه الفياضانات  
العابرة أياما وأياما ونحن أسرى فوق الأشجار .

وفى ذهنى صورة واحدة قوية . فى هذه الصورة أشجار ضخمة حولنا ومن  
فوقها تتدلى خيوط سنجابية اللون من الطلح بينما تزحف على جنوعها نباتات  
متسلقة جبارة كأنها حيات هائلة وتتولى فى الهواء وهى متشابكة وكل ماحولنا  
وحل . وحلم شبع بالماء تخرج منه فقائيع الهواء فيرتفع وينخفض . وكما عشرة  
وسط كل هذا ، عشرة نحفاء بانسين تبرز عظامنا من أديمنا المشدود ولم نغن أو  
نثرثر . أو نضحك ولم نلعب إذ غلب القهر على أرواحنا التى كانت تتسم بالخفة  
والقوة وصدرت عنا أصوات الشكوى والمشاجرة ونظر بعضنا الى البعض الآخر  
وتجمعنا معا تجمع حفنة من النساء مرت بهم أهوال يوم القيامة .

ولا علاقة لهذا الحدث بالأحداث الأخرى التى وقعت فى المستنقع . ولا أعرف  
كيف استطعنا عبوره . ولكننا خرجنا أخيرا الى حيث تمتد سلسلة من التلال

المنخفضة حتى شاطئ النهر . والنهر نهرنا يخرج مثلما خرجنا من المستنقع .  
ووجدنا على الشاطئ الجنوبي حيث شق النهر طريقه في التلال عدة كهوف في  
الحجر الرملي ومن وراء ذلك كان المحيط يهدر عند ملتقى مائه بماء النهر عند  
مصبه وهنا استقر بنا المقام في الكهوف مقرنا الدائم بجوار البحر .

ولم نكن كثيرين ومع مرور الزمن أخذت جماعات متزايدة من أهل القبيلة تظهر  
من وقت لآخر وقد جروا أنفسهم من المستنقعات فرادى أو اثنين أو ثلاثة وهم  
أقرب الى الموت منهم الى الحياة مجرد هياكل هائمة حتى أصبحنا أخيرا ثلاثين  
شخصا ولم يعد أحد يأتي من المستنقع ، ولم يكن العين الحمراء بيننا ولوخط انه  
لم يبق على قيد الحياة أحد من الأطفال بعد تلك الرحلة الخفيفة .

ولن أتحدث بالتفصيل عن السنوات التي عشناها بجوار البحر ولم يكن المقر  
سعيدا فالهواء بارد رطب ولم تكف عن السعال ونزلات البرد ولم نستطع العيش  
في مثل هذه البيئة . صحيح أننا رزقنا أبناء ولكنهم لم يعيشوا طويلا بل كانوا  
يموتون مبكرين وأخذنا نموت بسرعة تفوق السرعة التي يولد بها الجدد وتناقص  
عددنا تناقصا مستمرا .

وعندئذ لم يكن التغيير الجوهري في طعامنا مفيدا لا وأصبحنا نعيش على  
القليل من الخضر والفككة وأصبحنا كذلك من أكلة السمك . وكانت هناك أسماك  
بلح البحر وهو نوع من المحار وأذن البحر وهو الحلزون البحري واللزيق وهو  
السماك الصدفى والجندفلى وأبو جلمبو الكبير الذي يقذفه المحيط على الشاطئ  
في الجو العاصف . كما كنا نجد عدة أنواع من الأعشاب البحرية التي تصلح  
للطعام ولكن تغيير الطعام سبب لنا متاعب في المعدة ولم يعرف أحدنا طريقا  
للبدانة كنا جميعا نحفاء . وقد فقد مسترخى الاذن حياته بسبب حلزون بحري  
فقد أطبق هذا الحلزون البحري على أصابعه اثناء الجزر ثم جاء المد وأغرقه  
ووجدنا جثته في الصباح التالي فكانت وفاته درسا لنا فلم يطبق الحلزون على يد  
أحدنا بعد ذلك .

واستطعنا أنا والسريعة أن نربي طفلا ولدا واستطعنا على الأقل أن نربيه  
حتى بلغ من العمر عدة سنوات ولكني وأث من أنه ماكان مستطعنا ان يبقى حيا  
في ذلك المناخ ال رهيب . وفي ذات يوم ظهر أهل النار ثانية وكانوا قد جاؤا عبر  
النهر لا على طوف بل في قارب محفور في جذع شجرة وكانوا ثلاثة يجدفون فيه

## الفصل الثامن عشر

ومعلوماتي عن تجولنا في المستنقع الكبير غير واضحة . وعندما أستعيد  
الذكرى أجد الكثير من الانطباعات التي لا علاقة بين بعضها والبعض الآخر ولا  
أجد لقيمة الزمن وجودا وليست لدى أية فكرة عن مدى الوقت الذي قضيناه في  
أرض المستنقع الفسيحة . وتتخذ ذكرياتي عما حدث شكل الكابوس دائما . وأدرك  
أنى ظلت أزمانا لا حصر لها يطاردني خوف متغير الاشكال ويدفعني الى التيه  
الذي لا آخر له في بدياء مظلمة أرضها مشبعة بالماء حيث تهاجمنا التعابين  
السامة وتزأر الحيوانات حولنا والطمى يهتز تحت أقدامنا ويمتص أعقابنا .

وأعرف أننا انحرقنا عن مسارنا مرات لا حصر لها بسبب الغدران والبحيرات  
والبحار والأودية . ثم هناك العواصف وارتفع الماء فوق مناطق شاسعة من  
الاراضي المنخفضة هناك فترات جوع وشقاء حين يحاصرنا ماء هذه الفياضانات  
العابرة أياما وأياما ونحن أسرى فوق الأشجار .

وفي ذهني صورة واحدة قوية . في هذه الصورة أشجار ضخمة حولنا ومن  
فوقها تتدلى خيوط سنجابية اللون من الطلح بينما تزحف على جنوعها نباتات  
متسلقة جبارة كأنها حيات هائلة وتتولى في الهواء وهي متشابكة وكل ماحولنا  
وحل . وحلم شبع بالماء تخرج منه فقائيع الهواء فيرتفع وينخفض . وكما عشرة  
وسط كل هذا ، عشرة نحفاء يائسين تبرز عظامنا من أديمنا المشدود ولم نغن أو  
نثرثر ، أو نضحك ولم نلعب إذ غلب القهر على أرواحنا التي كانت تتسم بالخفة  
والقوة وصدرت عنا أصوات الشكوى والمشاجرة ونظر بعضنا الى البعض الآخر  
وتجمعنا معا تجمع حفنة من النساء مرت بهم أهوال يوم القيامة .

ولا علاقة لهذا الحدث بالأحداث الأخرى التي وقعت في المستنقع . ولا أعرف  
كيف استطعنا عبوره . ولكننا خرجنا أخيرا الى حيث تمتد سلسلة من التلال

وأحدهم هو الصياد العجوز النحيل الضئيل ورسوا على شاطئنا وأخذ يعرج على الرمل ويفحص كهوفنا .

وضموا بعد دقائق ولكن السريعة كانت خائفة أشد الخوف وكنا جميعا خائفين ولكن الخوف لم يصل بأحدنا مبلغ ما وصل إليه بها وأخذت تبكي وظلت قلقة طول الليل وفي الصباح حملت الطفل على ذراعها ودفعتني بصيحاتها العالية وإشاراتهما إلى رحلتنا الطويلة الثانية وهي تتقدمني . وخلصنا وراعنا في الكهوف ثمانية من القوم (كانوا هم كل ما تبقى من القبيلة) لا أمل لهم فمما لا شك فيه هو أنهم حتى إذا لم يعد أهل النار لابد أن يهلكوا فقد كان المناخ سيئا جدا هناك بجوار البحر إذ لم يكن تكوين أهل القبيلة يلائم حياة سكنى الساحل .

ووصلنا جنوبا نقضى أيامنا نور فيها حول المستنقع الكبير ولكن لم نجروا أبدا على الدخول فيه وحدث ذات مرة أن رجعنا ناحية الغرب وعبرنا سلسلة من الجبال وهبطنا إلى الساحل . ولكن هذا المكان لم يكن ملائما لنا . لم تكن هناك أشجار - بل مساحة من الأرض كالحة تمتد إلى الماء وأمواج الشاطئ تهدر كالرعد وريح قوية يبدو أنها لا تكف عن الهبوب وعدنا عبر الجبال ونمضى شرقا وجنوبا حتى عدنا إلى مكاننا على مقربة من المستنقع .

وسرعان ما بلغنا أقصى الطرف الجنوبي من المستنقع ومضينا في سيرنا جنوبا وشرقا وكانت أرضا لطيفة فالهواء دافئ، وعدنا إلى الغابة وبعد ذلك عبرنا سلسلة من التلال المنخفضة ورأينا أنفسنا في بلد غابات أفضل وكلما زاد تولفنا فيها وابتعادنا عن الساحل وجدنا الجو أكثر دفئا وظللتنا نمضى ونمضى حتى بلغنا نهرا واسعا بدا مولفا للسريعة ولابد أن تكون قد جأت إلى هذا المكان أثناء غيابها عن القبيلة ذلك الغياب الذي استمر أربع سنوات وعبرنا هذا النهر فوق كتلة خشبية ورسونا على الشاطئ الآخر عند قاعدة جرف عال حيث وجدنا بيتنا الجديد - وهو كهف يصعب الوصول إليه لا تراه أية عين تنتظر إليه من تحت .

وليس هناك ما يحكى فهنا عشنا أنا والسريعة وربينا أولادنا وهنا تنتهى ذكريات ولم نبق أية هجرة أخرى قط ولا تتجاوز أحلامى مدة كهفتنا العالى العسير المتال . ولابد أن يكون قد ولد هنا الطفل الذى ورث مادة أحلامى . وإذ نبى أدخلت فى كيانه كل انطباعات حياتى . أو حياة السن الكبيرة الذى هو نفسى الأخرى لا نفسى الحقيقية بل الذى هو عندى حقيقى لدرجة أنى كثيرا ما أعجز

عن تحديد سنى وقت أن عشت حياتى وغالبا ما أتساءل عن هذه السلالة فانا حديث عهد بالأحوال ومع ذلك فانا السن الكبيرة البدائى لست رجلا . وفى مكان ما ومع تسلسل خط التناسل اندمج هذان الجزاء فى شخصيتى المزبوجة ولا أعرف ما إذا كانت القبيلة قبل انتهائها فى عملية تحولها إلى رجال ومن ناحية أخرى لا أعرف ماذا إذا كنت أنا وذاتى الأخرى قد مررنا بهذه العملية؟ ومن ناحية أخرى لا أعرف ما إذا كان أحد أقاربى قد اندمج فى أهل النار وأصبح واحدا منهم وليس هناك من سبيل الى معرفة ذلك الا أن هناك شيئا واحدا مؤكدا هو أن السن الكبيرة طلع كل انطباعات حياته على تكوين مخ أحد نريته وأنه طبعها على نحو ثابت راسخ بحيث لم تستطع أن تمحوها الاجيال المتداخلة العديدة .

وهناك شيء آخر يجب أن أتكم عنه قبل أن أختم حديثى وهو حلم كثيرا ما أراه ومن ناحية الزمن لابد أن يكون الحدث الحقيقى قد وقع خلال الفترة التى عشت فيها فى الكهف العالى البعيد المتال . وأذكر أنى أوغلت فى تجوالى فى الغابة ناحية الشرق وهناك صادفت أفراد قبيلة من أهل الشجرة وقبعت فى أجمة وراقبتهم وهم يلعبون كانوا يعقدون مجلسا للضحك يقفزون علوا وسفلا ويفنون غناء فى صيحات جماعية بدائية .

وعلى حين فجأة كفوا عن ضوضائهم وعن قفزهم وانكمشوا فى خوف وبتفتوا فى لهفة تبحث أعينهم عن طريق للتراجع وعندئذ دخل العين الحمراء بينهم . وخاف الجميع ولكنه لم يحاول ايداعهم فهو واحد منهم . وفى أعقابها امرأة ذات ساقتين منحنيتين مخيفتين توازن نفسها بالاستناد الى مفاصل أصابع قدميها على الأرض من الناحيتين وهى من أهل الشجرة وأخر زوجات العين الحمراء . وجلس وسط الحلقة وأستطيع أن أراه الآن وأنا أكتب هذا مقطبا جبينه وقد التهبت عيناه وهو يحدق النظر حوله فى أهل الشجرة المحيطين به وفيما هو يحدق النظر فيهم بساقه الرهيبة ويحك بطنه بإصبع قدمه المعوجة . إنه العين الحمراء المرتد الى أصله .

## هذه الرواية

□ يعتبر النقاد رواية «قبل آدم» هي أول رواية بين أعمال الكاتب الأمريكي «جاك لندن» التي يمكن وصفها بالانتماء إلى أدب الخيال العلمي. ففى هذه الرواية، وعبر الأحلام، يتذكر رجل ينتمى إلى بداية القرن العشرين، أحداثا وقعت فى زمن ومكان آخرين، يتذكر حياة افترض وجودها مع فجر الزمن.

ويكشف لنا الراوى «بيج توث» مدى وحشية وقسوة الحياة فيما قبل التاريخ، والحاجة إلى خوض معارك لا تنتهى من أجل البقاء، والخطر الدائم الذى تفرضه مطاردات الوحوش للحصول على غذائها، والأصعب التعرض لمطاردة «فايرمين» «Fire Men»، وهم جنس من البشر أكثر تطورا من الجنس الذى انتمى له «بيج توث»، وعرفوا كيف يشعلون النار ويستخدمون القوس والسهم فى الصيد والقتل.

وعبر الرواية، يقدم الكاتب كل ليلة حلما مختلفا يمثل حلقة فى حياة أسلافه. ويسعى الراوى إلى إعادة ترتيب هذه الحلقات / الأحلام ليقدم لنا سيرة أسلافه بأسلوب رومانسى لا يخلو من الإثارة والتربق.

## المؤلف



□ ولد الروائى الأمريكى «جاك لندن» عام ١٨٦٧. وعمل فى شبابه بائع صحف وحمالا على عربات الثلج، ثم عمل فى تفرغ وتحميل المراكب، وبعدها اتجه للعمل فى السفن فى عام ١٨٩٤. وتعرض للسجن فى منطقة شلالات نياجرا لمدة ٢٠ يوما بتهمة التشرد، حيث تعرف هناك

على الطبقات العاملة المسحوقة، ولس ما تعانیه من استغلال. وكان «جاك لندن» صورة حية لمعظم أبطال رواياته الذين لا يبقون على قيد الحياة إلا من خلال الانتصار فى صراع البقاء الضارى. وعاش «جاك لندن» حياة صعبة مليئة بالمتاعب ونقل للقارى الكثير من تلك التجارب فى أعماله الروائية والقصصية، فاتسمت أعماله بالقسوة والمرارة.. كذلك نجد فى رواياته تصويرا لأشكال متنوعة من الصراعات بمستواها البدائى احتوتها روايات أبطالها من الذئاب والحيوانات المتوحشة، بالإضافة إلى شخوص من الطبقات الفقيرة والكادحة فى محاولاتهم لتحقيق النجاح.

وفى عام ١٩١٦ توفى «جاك لندن» منتحرا، بعد أن ترك عشر روايات وثمانى عشرة مجموعة قصصية وثلاث مسرحيات وأكثر من مائة وخمسين مقالا وثمانية كتب عن المجتمع. ومن أشهر رواياته، رواية «الذئب الأبيض» التى صدرت ضمن سلسلة روايات الهلال عام ١٩٩٠، ورواية «القدم الحديدية» ورواية «ابن الذئب» و«نداء البداية» و«ذئب البحر» و«قبل آدم»..